الحكمة والبلاغية في شعر الإمام الشافعي وعلاقتها ببناء القصيد " دراسة تحليلية "

د. مصطفى محمد أبو طاحون

كلية الآداب ـ جامعة المنوفية

الأستاذ المساعد بجامعة ماردين أرتكلو

بالجمهورية التركية

مقدمة:

عرف الشافعي " رحمه الله " في وعى الأمة الجمعي محدثاً فقيهاً لا شاعراً مبدعاً، ولذا فقد عنى دارسوه بفقهه وتجديده ورسالته فتلك هي الغاية (الأم) لبحوثهم، ولم يحظ إبداع الإمام الأدبي بمثل عناية الدارسين لفقه الإمام، وربما كان من المثبطات التي حالت دون إقدام الباحثين على دراسة شعر الشافعي وأدبه ما أثير حول أدب الفقهاء وسذاجته أو سطحيته أو مباشريته وضعف الجانب الفني فيه. على أن هناك دراسات سعت إلى إنصاف الرجل انطلاقاً من قناعة فنية بشعر الإمام وانطلاقاً أيضاً من عاطفة إسلامية واضحة؛ من تلك الدراسات؛ (الإمام الشافعي أديب الفقهاء) للدكتور محمد مصطفى هدارة " رحمه الله " [١] ودراسة الدكتور مجاهد مصطفى بهجت في مقدمة تحقيقه لديوان الإمام [٢] باستثناء هاتين الدراستين لا نكاد نجد دراسة معمقة جادة تعني بالبحث في شعر الشافعي بوصفه جانباً من جوانب عبقرية الإمام الشافعي.

وتأتي أهمية هذا البحث من كونه محاولة مضافة لإنصاف شعر الإمام، ومن كونه يعني بجانب مهمل يتصل اتصالاً وثيقاً بإبداع الإمام من حيث هو وسيلة لا غاية؛ وسيلة للدعوة والإصلاح وصورة من صور البوح الذاتي والتأريخ لمسيرة الإمام، كما تأتي الأهمية من خلال اختبار مدى صلاحية الحكمة الماضوية – زمناً – للحياة المعاصرة أو بعدها عنها.

وتتمثل صعوبة البحث الكبرى، إضافة لقلة الدراسات، في الطبعات المتكاثرة لديوان الشافعي، وأغلبها تجاري صدر في الغالب عن عاطفة صادقة وعن غير تدقيق علمي إلا نشرة الدكتور مجاهد بهجت [٣] ثم نشرة الدكتور عمر فاروق الطباع [٤] .

وتهدف هذه الدراسة إلى الوقوف على حقيقة الحكمة والإبلاغية في شعر الإمام الشافعي وعلاقتها ببناء القصيد وفق منهج تحليلي، ولذا فقد جعلت عنوانها:

(الحكمة والبلاغية في شعر الإمام الشافعي وعلاقتها ببناء القصيد " دراسة تحليلية ")

وتأتي الدراسة في تمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة، أما التمهيد فعن شاعرية الشافعي وعن تحوله عن الشعر إلى الفقه.

ويعني المبحث الأول بالحكمة في شعر الشافعي " مقوماتها ونماذجها ".

والمبحث الثاني عن: البلاغية في شعر الشافعي بين الذات والآخر.

والمبحث الثالث في: تقنيات التعبير الفني في شعر الحكمة والبلاغية للإمام الشافعي. والخاتمة رصد لأهم النتائج.

ولا يفوتني أن أشير إلى أن هذا البحث قد أعد في الأساس للمشاركة في مؤتمر جامعة الأقصى بغزة في إبريل الماضي ٢٠١١ وقت أن كنت معاراً للعمل بجامعة ماردين أرتكلو بتركيا. ولكن حالت ظروف ما – وما زالت ظلالها باقية للآن – دون استصدار مرسوم من الخارجية المصرية للعبور إلى غزة، فلغزة ولجامعة الأقصى الشكر على صحبة أتاحوها لي لمرافقة الإمام الشافعي، شفعه الله في انفكاك حصار طال أمده، وتعمق أثره. ولكن لاح في الأفق فجر الخلاص، وضياء العزة والإصلاح.

التمهيد:

يقاس تاريخ الأمم بقدر ما ظهر فيها من رجال ، والشافعي رحمه الله واحد من هبات الله لأمة الإسلام ، لاح فجره في عام ١٥٠ للهجرة ، وأنارت شمس علمه حواضر الإسلام الكبرى ، ابتداءً من نهايات الربع الثالث للقرن الثاني ، واكتمل مشروعه الفقهي المتفرد بنهاية القرن ، حتى عده بعض القدامى مجدد عصره ، (قال الشيخ أبو الوليد حسان بن محمد الفقيه كنا في مجلس القاضي أبى العباس بن سريج سنة ثلاث وثلاثمائة ، فقام إليه شيخ من أهل العلم فقال له : أبشر أيها القاضي فإن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها ، وإنه تعالى بعث على رأس المائة عمر بن عبد العزيز وتوفى سنة ثلاث ومائة ، وبعث على رأس المائتين أبا عبد الله محمد بن إدريس الشافعي وتوفى سنة أربع ومائتين ، وبعثك على رأس الثلاثمائة ، ثم أنشأ يقول (من الكامل) :

اثنانِ قد مَضَيا فبُورك فيهما ... عُمَرُ الخليفة ثم حِلْفُ السُّؤْدُد

الشافعي الألمعيُّ محمدُ ... إرثُ النبوة وابنُ عم محمد

أبْشِرْ أبا العباسِ إنك ثالث ... من بعدهم سُقْيًا لنبوةِ أحمد

قال: فصاح القاضي وبكى وقال: إن هذا الرجل قد نعى إليَّ نفسي

قال فمات القاضي أبو العباس في تلك السنة، وذكر الخطيب في تاريخه أن ابن سريج مات سنة ست وثلاثمائة) (٥).

ولقد عرف الشافعي رحمه الله فقيها ومحدثا قبل أن يعرف شاعرا، فقد استقر في وعى الأمة الجمعيَّ أن الشافعي رأسُ مذهب فقهى تتكاثر أنصاره إلى الآن بأنحاء العالم الإسلامي.

ولقد كان الشعر مع اللغة والغريب والرمي أول ما طلبه الشافعي في تكوينه الباكر، فقد ورد في" تذكرة الحفاظ " أنه (كان من أحذق قريش بالرمي، كان يصيب من العشرة عشرة، وكان أولا قد برع في ذلك وفي الشعر واللغة وأيام العرب) (٦) غير أن الشافعى تحول عن ذلك – وإن جزئياً – إلى الفقه والحديث والقرآن؛ فقد روي (الزبير بن بكار عن عمه مصعب بن عبد الله بن الزبير أنه خرج إلى اليمن فلقي محمد بن إدريس الشافعى وهو مستحصف في طلب الشعر والنحو والغريب، قال فقلت له: إلى كم هذا؟ لو طلبت الحديث والفقه كان أمثل بك، وانصرفت به معي إلى المدينة فذهبت به إلى مالك بن الأنس وأوصيته به، قال: وكان فتي حلواً ، قال :

فما ترك عند مالك بن أنس إلا الأقل ولا عند شيخ من مشايخ المدينة إلا جمعه، ثم شخص إلى العراق فانقطع إلى محمد بن الحسن فحمل عنه)[٧]

والثابت أن الشافعى تمرد علىَ الشعر وتحول عنه – لا بالكلية وإن كان بما يشبه الكلية – إلى الفقه ، منحازا في ذلك إلى حاجة الأمة لا حاجته هو ... وذلك عن وعى تام ؛ (إذ إن التمرد عمل إرادي واع إلى حد كبير)[٨] نعم تشارك ظروف عديدة تختلف من شخص لآخر في عملية التحول أو التمرد ، ولكن يبقى عامل رئيس هو الأكثر فاعلية في تلك العملية يتمثل في أثر الإبداع الأدبي ، ورد فعله على الآخر ، وكما يرى دكتور على شلش فـ (مهما تباينت ظروف المتمرد وعوامله – على أي حال – فثمة ظرف أو عامل له أهمية خاصة عند أصحاب النفوس ذات الحساسية المرهفة . ويتلخص هذا الظرف أو العامل في الصدى ونعنى به أثر الإبداع الأدبي ورد فعله على الغير) [٩]

وربما أحسَّ الشافعى في ذاته روح الفقيه وورع الداعية أكثر من عبقرية الشاعر فانصرف إلى ما خلق من أجله راضيا [١٠] حينما لم تطاوعه أداته الشعرية كما يريد؛ إذ أدرك قوة فكره، وسمو روحه وتسامى رؤاه عن شاعريته، ولذا لم يسعَ الشافعى إلى مزاحمة معاصريه من الشعراء .. وإنما زاحم وجادل وناظر أئمة الفقه وأعلامه المعاصرين ففاقهم وصار أحد أربعة أسسوا للفقه السني عبر تاريخ الفقه الإسلامي.

وإذا كانت عملية التمرد هذه هي عملية تفاعل كبرى تصطرع أطرافها داخل الذات المتمردة بين العوامل المحيطة والقيم الذاتية الشخصية الأثيرة، فالظن أن مجال الشعر ساعتها لم يغرِ الشافعى؛ إذ كان أصحاب التجديد أمثال النواسي وبشار هم أهل القدح المعلَّى، وليس أمثال الشافعي.

وفي شعر أبى حيان محمد بن يوسف بن على بن حيان قصيدة تحكي عن تحول الشافعي عن اللغة والأدب إلى الفقه يقول فيها (من الطويل) :

غُـذِيتُ بعلـمِ النحـو إذ در لـي ثـدياً ... فجسمي بـه يَنْمى وروحي بـه تحيا

سـأتركه تـرك الغـزال لظلّـه ... فأُتبعـه هجـراً وأُوسـعه نأيـا

وأسـمو إلـى الفقـه المبـارك إنـه ... ليرضيك في الأخرى ويعليك في الدنيا

هـل الفقـه إلا أصـل ديـن محمـد ... فجِّـردْ لـه عزمـاً وجـدِّد لـه سـعيا

وكـن تابعـاً للشـافعيِّ وسـالكاً ... طريقتـه تبلـغُ بـه غايـةَ القُصـيا

سـمى الرسـول المصـطفى وابـن عمـه ... فناهيـك مجـداً قـد سـما الرتبـة العليا

هـو اسـتنبط الفـنَّ الأصـوليَّ فاكتسـى بـه الفقـه مـن ديبـاج إنشـائه وَشْـيَا[١١]

وبالنظر إلى الإنجاز المتحقق، فلابد أن يكون الشافعى قد تمرَّد على الشعر، واشتغل بالفقه، فالرجل الذي قضى سبع عشرة سنة في هذيل ليأخذ عنها اللغة، ويروى شعرها ... لم يقدم إنجازا أدبيا يمكن أن يقارن بما أنجزه في المجال الفقهي الدعوى، ونظرة عجلى في آثار الرجل تقرر ذلك ، وربما كان إهمال الشافعى أو عدم عنايته الكافية بشعره أحد أهم الأسباب الضالعة في عدم جمع شعره أو الالتفات إليه باكرا.

ومن الثابت أن الشافعى لم ينقطع عن الشعر فوراً وتماماً اللهم إلا في أخريات حياته فقد ظل يتعاطاه [١٢] وإن قلَّ إقبالُه عليه ... وتُرْوَى له أشعار تصل بين المجالين : المتحوَّل عنه ، والمتحوَّل إليه ؛ الفقه والشعر ، حينما صاغ فتواه شعرا ، ففي مناقب الشافعى أنه (جاءه رجل برقعة مكتوب فيها :

رجـل مـات ، وخلـى رجـلا ابـن عـم ، ابـن أخـى عـم أبيـه

فأجابه الشافعى (من الرمل) :

حـاز مـال المتـوفَّى كـاملاً باجتمـاع القـول لا مِرْيَـةَ فيـه :
ذا الـذي أخبـرتَ عنـه : إنَّـه ابـنُ عـمّ ، ابـن أخـى عـمِّ أبيـه) [١٣]

وربما كان ذلك في مرحلة التأرجح بين المجالين .. نلقى ذلك فيما يرويه الربيع بن سليمان قال : (كنا عند الشافعى إذ جاءه رجل برقعة فنظر فيها وتبسم ، ثم كتب فيها ودفعها إليه ، قال فقلنا : يُسأَل الشافعىُ عن مسألة لا ننظر فيها وفى جوابها ؟

فلحقنا الرجل وأخذنا الرقعة فقرأناها وإذا فيها :

سل المفتىَ المكيَّ هل في تَزاورٍ وضَمَّةِ مشتاقِ الفؤادِ جُناحُ؟

قال وإذا إجابة أسفل من ذلك (من الطويل) :

أقولُ معاذَ الله أن يُذْهِبَ التُّقَى تلاصقُ أكبادٍ بهن جراحُ....

ومثله ما بلغنى أن رجلا جاء برقعة فيها (من الطويل) :

سل المفتىَ المكيَّ من آل هاشمٍ إذا اشتد وجدٌ بامرىءٍ كيف يصنعُ

قال فكتب الشافعى تحته (من الطويل) :

يداوى هواه ثم يكتمُ وجدَهُ ويصبرُ في كلِّ الأمورِ ويخضعُ

فأخذها صاحبها وذهب بها ثم جاءه وقد كتب تحت هذا البيت الذي هو الجواب (من الطويل) :

فكيف يداوي والهوى قاتلُ الفتى وفي كلِّ يومٍ غُصَّةٌ يتجرَّعُ

فكتب الشافعي رحمه الله (من الطويل) :

فإن هُوَ لمْ يصبرْ على ما أصابه فليس له شيءٌ سوى الموتِ أنفعُ) [١٤]

وقد هيأت مشيئة الله للشافعي مهاداً عربياً قرشياً ، وحسبه ذلك ليكون صحيح الكلام وفصيحه[١٥] ولم يقف طموح الشافعي عند حد الفطرية فسعى إلى تعزيزها بالاكتساب ، فرحل إلى هُذَيْل ، وقدا اشتهرت هذه القبيلة بفصاحتها في نثرها وشعرها [١٦] ليحفظ سليقته ، حتى صار كأنه واحد من هذيل يُحتج بكلامه كما يحتج بكلامها [١٧] .

للشافعي إذاً شأن بارز في ميادين العلم المختلفة ،تفسيراً وحديثاً وفقهاً وأدباً ، ولكن شهرته الفقهية طغت على شاعريته، فقيل شاعر غلب عليه الفقه ، بخلاف أبي نواس الفقيه الذي غالبه الشعر فغلبه عن فقهه ، وقد نال تحوُّلُ الشافعي عن الشعر إلى الفقه من شعره ، فعُدَّ شعرُه من شعر العلماء أو أدب الفقهاء من أمثال الخليل بن أحمد ، وأبي بكر بن دريد ، غير أن القفطي في " المحمدون من الشعراء " ميز شعر الشافعي فجعله (أجل من شعر الفقهاء)[١٨]وقد ورد في" معجم الأدباء " عن يونس بن عبد الأعلى أنه قال:

(كان الشافعي إذا أخذ في العربية قلت : هو بهذا أعلم ، وإذا تكلم في الشعر وإنشاده قلت : هو بهذا أعلم ، وإذا تكلم في الفقه ، قلت : هو بهذا أعلم) [١٩]

المبحث الأول: الحكمة في شعر الشافعي

تتميز الروح الشرقية كما يقول الدكتور عاطف جوده نصر (بميل لا يقاوم إلى سوق الحكمة والموعظة وضرب الأمثال وهي في الأغلب مصوغة في شكل فواصل جارية على موازين السجع ، وقد تأتي غير مقيدة به ، وهي في الحالتين تؤول إلى عبارات مكثفة طابعها الإيجاز ، الغاية منها نقل الخبرة وتحقيق الغاية المرجوة من التجارب) . [٢٠]

وفي الشعر الجاهلي القديم كانت الحكمة منتثرة ، بيت هنا وبيت هنالك ، أما في العصر الأموي وبخاصة في القرن الثاني فقد تطور شعر الحكمة فـ (صار له شعراء متخصصون وقصائد مقصورة عليه ، كما اتسعت معانيه باتساع آفاق الثقافة في هذا العصر وباتصالها بآداب وحكم وأمثال الأمم الأخرى من فرس وهنود ويونان) .[٢١]

كثرت الحكمة إذاً في شعر القرن الثاني وكثر شعراؤها أمثال أبو بكر العرزمي ، ومحمود الوراق ، وصالح عبد القدوس وكان منهم الإمام الشافعي .

والحكمة هى إحدى أهم الشواهد على عقلية الشعوب وعادتها وثقافتها ، وعلى ذلك فإن دراسة الحكمة في شعر الشافعى سبيل إلى التعرف على قيمه وأخلاقه ، وربما على شيء من ظروف حياته ..

والحكمة ضالة المؤمن أنَّي وجدها فهو أحق الناس بها ، يسعى إليها ليستعين بها على مكاره الأحداث ، ومكر الأحياء ، ولذا يقدر العامة للحكماء خبراتهم ونصحهم من أجل حياة عزيزة كريمة ، فالحكماء يرشحون خبراتهم العميقة في عبارات بسيطة يدركها – دون أن يحط من عُمق مغزاها ويُبعد مرماها – القرويُّ والحضري ، المثقف والأميُّ ، لأنها ببساطة خبرات حياتية – الجميع في عوز إليها ، وتمتلك من مقومات الإقناع ما يرشحها لتكون جزءاً من قانون الحياة ؛ إذ تقوم على العلم والخبرة ، وتتفق مع نواميس الحياة ، وتوجه إلى الخير والحق والفضيلة ، وتتسم بالسداد في القول والمنطق، وفي الحكم والقياس .

وقد ورد في تعريف الحكمة قول ابن منظور في لسان العرب:

(الحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم، ويقال لمن يحسن دقائق الصناعات ويتقنها حكيم .... ويقال للرجل إذا كان حكيماً: قد أحكمته التجارب، والحكيم: المتقن للأمور) [٢٢]

وفي (أساس البلاغة):

(أحكم الشيء فاستحكم، وحكم الفرس وأحكمه: وضع عليه الحكمة، ... ورجل محكَّم: مجرَّب منسوب إلى الحكمة .... وحكم الرجل مثل حَلُمَ، أى صار حكيماً. ومنه قول النابغة:

واحكمْ كَحكمِ فتاةِ الحيِّ إذْ نظرَت ... إلى حمامٍ سراعٍ وارِدِ الثَّمَد

وأحكمته التجارب جعلته حكيماً). [٢٣]

والحكمة هي (عبارات موجزة تكاد تنوء بعبء المعنى الثقيل، تنطوي على نور العقل ونور اليقين، وتحتوي على خبرة العين والأذن واللسان والشعور، وتنبض بالحقيقة) [٢٤] ولكل أمة حكمتها وحكماؤها. وقد زخر التراث العربي في شعره ونثره بوافر من بينات الحكمة التي تمثل الحياة العربية، والنفسية العربية أدق تمثيل، وحكم القدامى أشبه بالوثائق النفسية والاجتماعية التاريخية الهادية إلى التعرف على ما كان دون معايشة أو لقاء، ودائما ما تملك الحكمة من قيم الإنسانية الفاضلة وأمارات الدقة وصواب المعنى وثباته ما يهيئها لتجاوز الزمان والمكان لصالح

عموم الإنسان ... وهو الأمر الذي يقرره تماثل الحكمة في جل مدوناتها بين الشرق والغرب قديماً وحديثاً. إذ لا يتخالفان في هذا المجال إلا نادراً.

والشافعي حكيم من حكماء الأمة تهيأت له أسباب الحكمة فلهج لسانه بها. وقد تنبَّه القدامى قبل المحدثين لذلك . وربما كان الشافعي ذاته أول من تنبه إلى قدراته الحكمية فقرر ألا يضن بها وإن ضُيِّعَ في شر بلدة ، وتمنى لو بلغ غيثُ حكمته مَحِلَّه ، فصادفت أهل العلوم والحكم ، وإلا فستكتتم إلى حين .. جاء في" حلية الأولياء وطبقات الأصفياء " : (أن محمد بن إدريس الشافعي لما دخل مصر أتاه جلة أصحاب مالك وأقبلوا عليه فابتدأ يخالف أصحاب مالك في مسائل فتنكروا له وحصروه فأنشأ يقول (من الطويل) :

أَأَنْثُرُ دُرّاً وسْطَ سارحة النعم ... أأنظمُ منثوراً لراعية الغنم ؟
لعمري لئن ضُيِّعْتُ في شَرِّ بلْدَةٍ ... فلست مُضَيِّعاً بينهم غُرَرَ الحكم
فإن فرَّج اللهُ اللطيف بلطفه ... وصادفت أهلاً للعلوم وللحكم
بثثتُ مفيداً واستفدت وِدَادَهُ ... وإلا فمكنون لدىَّ ومُكْتَتَم
فَمَنْ مَنَحَ الجُهَّال علماً أضاعه ... ومن منع المستوجبين فقد ظلم) [٢٥]

وفى مطلع الأبيات تعجُّبٌ تصنعه مفارقةُ وقوع الحكمة في غير محلها .. وبالتالي فقد وعد الشافعي بالمقاومة وعدم التخلي عن الرسالة مهما قابل من صعاب ..ثم هو يأمل أن يفرج اللطيف كربه فيهيئ له أرضاً وطيئة تستقبل علمه وحكمته ، وساعتها سيعم نفعه ، ويتوثق ودادُه بمحلِّه ، وإلا فسيضنُّ بعلمه على الجهول ، وبمقطع الأبيات تبرير لكتمانه العلم في قالب حكمى ، هو على بساطته يحملك على التَّمَثُّلِ به واليقين فيه والاهتداء بهديه . والانسجام الإيقاعي بالأبيات الناشئ عن التوازن بين الصدر والعجز يَنُمُّ عن قناعه المبدع بحكمته ، وبالعجز أمارة تشهد بأصالة الشافعي وطيب أرومته ؛ إذ يرى من الظلم منع الحكمة عمَّن وجب له أن ينالهما. وممن تنبهوا للحكمة عند الشافعي قديما "أبو حيان محمد بن يوسف بن حيان" إذ يقول عنه في قصيدته المشهورة التي رثاه بها (من الطويل) :

له النَّظْمُ والنَّثْرُ الذي شاع ذكرُه ... فلا لحنَ فيه يَعْتَرِيهِ ولا عيَّا
وكم حِكَمٍ قد قُيِّدَتْ من كلامِهِ ... كأنَّ بها لقمانَ عادَ له المَحيا [٢٦]

ولقد تنبه كثيرون حديثاً إلى حكمة الشافعي ، ربما لأن أكثر ما تحفظه ذاكرة الأمة من شعر الشافعي هو مما يدخل في باب الحكمة .. فالشافعي (لم تكن أشعاره – الأبيات أو المقطعات– من دلائل النفس الشعري المحدود أو القصير بل تجاوباً مع نزعته إلى شرف

المعنى ، فهو أقرب إلى بابي الخاطرة والحكمة) [٢٧] يقول الأستاذ محمد عفيف الزعبي عن الشافعي : (إذا أنشد شعراً انتسب إليه السحر أصبح انتساب، وتدفقت على لسانه معجزات البلاغة ، وانهمرت منها الحكم ، وقد انسابت حلوة رقيقة عذبة ، وانتثرت منها المعاني درراً، فسالت على يراعه تتحاسد في التسابق إلى خواطره ، فإذا هي إكليل دُرَّ ما لمنظومها سلك.

وإذا بهـا ديـوان نَظَـم عِقْـدَ البلاغـة ومعسـول العبـارة وبـديع الحكمـة ورقـة الموعظة) [٢٨]

مقومات شعر الحكمة عند الشافعي :

لقد تهيأت للشافعي أسبابٌ وعوامل عزَّزت من قدراته على الاهتداء إلى الحكمة وحبكها، بحيث كان اللسان والعقل والقلب مهيئات جميعها لتصنع من الشافعي مبدعاً في أحكامه، وحكيماً في إبداعه.

ولأن الحكمة هي عصارة عقل الحكيم، وخبراته بالحياة والأحياء، فإنها لم تتهيأ إلا لمن كان له عقلٌ لاقطٌ واعٍ، وقلب صافٍ فاقهٌ، وفراسة بينة لا تخطئ، وترحُّل بعيد الغور والأثر، وربما اختلاط عميق بعديد من الأنماط البشرية والثقافات الإنسانية ، ومن قبل هذا وبعده ؛ استعداد ذاتي عام يتسم بالقدرة على اكتناه أغوار الأشياء والأحوال والأحداث ... وللشافعي من ذلك كله حظٌ وافر .

صاول الشافعي بعقله عقول معاصريه، وحاور بالحجة والدليل منطق الآخرين ، فبذهم وفاقهم ، ولقد شهد كثيرون للشافعي برجحان عقله وعبقريته ، يقول الدكتور محمد مصطفى هدارة عن الشافعي (كان لسناً في جداله ، حتى قيل إنه يعمل بلسانه ما لا يقدر عليه المقاتل بسيفه) [٢٩] ، ولقد رصد " الأستاذ عبد الغني الدقر" كثيراً من إشادات القدامى بعقل الشافعي ؛ افتتحها بقوله :

(وإذا امرؤ عاش في عصر تصاولت فيه العقول ، فزاحمها ودافعها بالبيان والحجة والمنطق ، وبارزها فيما امتازت به، ولم يكن له ردءٌ من نفوذ السلطان ولا من وفرة الغنى ، فهو في هذه الحالة عاقل العقلاء .

والإمام الشافعي في عصره هو ذاك، لم يشركه في مكانته العقلية في الذروة الهرمية لعقل أمة، إلا النزر وأقل من النزر) [٣٠]

ثم ذكر شهادات من قالوا بوفرة عقل الشافعي وأكثرهم ممن لا يمت للشافعي بصلة المذهب أو القرابة ، بل إن بعضهم ممن يتنكب طريق السنة إلى البدعة ، وهم يعلمون أن الشافعي هو " ناصر السنة " من هؤلاء :

بشر بن غياث المريسي الفقيه المعتزلي إذ يقول:

(مع الشافعي نصف عقل أهل الدنيا) ويقول أيضا :

(ما رأيت أعقل من الشافعي) [٣١] ومنهم يحيى بن أكثم قاضي قضاة بغداد .. إذ يقول : (ما رأيت أحداً أعقل من الشافعي) [٣٢] ويقول أبو عبد الله الصاغاني عن يحيى بن أكثم أنه قال :

(كنا عند محمد بن الحسن في المناظرة ، وكان الشافعي رجلاً قرشي العقل والفهم ، صافي الذهن ، سريع الإصابة ولو كان أكثر سماع من العلماء لاستغنت أمة محمد به عن غيره من العلماء) [٣٣]

أما فراسة الشافعي فتتصل على نحوٍ ما بطلبه علم النجوم في وقت باكر من حياته ، فقد ورد في " توالى التأسيس " أن الشافعي نظر في النجوم ، وفيه : (كان الشافعي – وهو حَدَثٌ – ينظر في النجوم ، وما نظر في شيء إلا تفقَّه فيه وفهمه ، فجلس يوماً ، وامرأة رجل تطلق – فحسب فقال : " تلد جارية عوراء، على فرجها خال، وتموت لكذا " فولدت فكان كما قال ، فجعل على نفسه ألا ينظر في النجوم أبداً ، ودفن تلك الكتب التي كانت عنده) [٣٤]

ومع إيماننا بأنه لا يعلم الغيب إلا الله، فإننا لا نكفر بالفراسة كونها علماً أو ما يشبه العلم، ربما اهتدى به صاحبه إلى ما يوافق، ويصادف الحقيقة، ولئن أهمل الشافعي كتب النجوم وسكت عن طلبها، فقد جاء أن الشافعي قال فيما رواه ابن أبي حاتم من طريق الحميدي قال سمعت الشافعي يقول:

(خرجت إلى اليمن في طلب كتب الفراسة حتى كتبتها وجمعتها، ثم مررت برجل أزرق ناتئ الجبهة سناط فذكر قصته معه وأنه أكرمه إلى الغاية حتى هَمَّ أن يَدْفِنَ كتب الفراسة ثم ظهر له من لُؤمِ الطباع فوق ما كان يظن فأبقاها) [٣٥] وسواء أترك ذلك أم لم يتركه؛ فاليقين أن مهارة الشافعي في ذلك لم تمت في روحه حينما كفَّ عن الطلب، وإنما ظلت ماثلة قائمة يهتدي بها ويلجأ إليها كلما عنَّ له أن يلجأ.

وللشافعي حوادث مدهشة في فراسة الزكن وصواب التوقع واتفاق الظن كما يرى الأستاذ عبد الغنى الدقر(*)؛ منها ما رواه المزنى قال: (كنت مع الشافعى في الجامع، إذ دخل رجلٌ يدور على النيام، فقال الشافعى للربيع: قم فقل له: ذهب لك عبد أسود مصاب بإحدى عينيه؟ قال الربيع : فقمت إليه فقلت له : فقال نعم ، فقلت : تعال . فجاء إلى الشافعى فقال: أين عبدي؟ فقال: مَرَّ تجده في الحبس، فذهب الرجل فوجده في الحبس، قال المزنى : فقلت له : أخْبِرنا فقد حيَّرتنا!

قال: نعم، رأيت رجلا دخل من باب المسجد، يدور بين النيام، فقلت، يطلب هارباً، ورأيته يجيء إلى السودان دون البيض، فقلت هرب له عبد أسود، ورأيته يجيء إلى ما يلي العين اليسرى، فقلت: مصاب بإحدى عينيه، قلنا: فما يدريك أنه في الحبس. قال : ذكرت الحديث في العبيد : إن جاءوا سرقوا ، وإن شبعوا زنوا ، فتأولت أنه فعل أحدهما ، فكان كذلك) (٣٦) والفراسة هنا ليست رجماً بالغيب، ولا بدعا من التنجيم؛ إذ تتأسس على تأويل بارع، وعلى فهم دقيق عميق للنص النبوي وللسلوك البشري .

وقد جاء في " توالى التأسيس " أيضا ما رواه خزيمة قال : قال الربيع :

(مر أخي في صحن الجامع ، فدعاني الشافعى فقال ؛ يا ربيع ، هذا المار الذي يمشى أخوك ؟

قلت له : نعم ولم يكن رآه قبل ذلك) (٣٧).

ولا شك أن الفراسة على نحو ما تَمثَّلها الشافعى مما يتصل بالحكمة في إصابة الحقيقة، والكشف عن مخبوء لا تطاله عقول العامة ممن لا يتهيأ لهم سبر أغوار الحوادث. والوقوف على حقائق الأشياء .. وقد لا يعين على هذا الوقوف ، وذاك السبر شيء كما يعين الترحل والسفر ؛ إذ يتيح التنقلُ بين البلاد معرفةً بالناس وخبرة بالحياة لا يؤتاهما قابع متنعم في أهله .. وقد تنقل الشافعى في حياته بين غزة التي ولد بها ، ومكة التي حُمل إليها ونشأ فيها ، واليمن التي استخدم فيها بأحد الخدم الديوانية ، والمدينة .. ، والعراق التي لقى فيها محمد بن الحسن وأخذ عنه كثيراً ، ومصر التي خرج إليها وأكرمه أهلها وأخذوا عنه ، وبها مستقره (٣٨)

والتنقل بين البلاد على هذا النحو الذي تمثل بحياة الشافعى ، بدا في شعره سبيلاً إلى العلم وربما .. الهلاك غريباً، إذ يقول كما ورد في مناقب الشافعي لفخر الدين الرازي "ت ٦٠٦هـ " (من الطويل) :

سأضربُ في طولِ البلادِ وعرضِها ... لأطلبَ مالاً أو أموتَ غريبا

فـــإن تَلِفَـــتْ نفســـي فَلِلَّـــه دَرُّهـــا وإن سـلمتْ كـان الرجـوعُ قريبـا[٣٩]

وأكاد ألمح من بين أشطار الشافعى أن الفقر قد نال منه، وأن الحرمان قد ألمَّ به، وكلاهما مع الفطرة النقية سبيل إلى الفطنة والحكمة؛ إذ يدفعان المرء إلى حسن التصرف، وإعمال العقل، يقول الشافعي (من الوافر):

أرى نفســـى تُكَلِّفُنِـــى أمـــوراً يُقَصِّـــرُ دونَ مَـــبْلغهن مـــالي

فـــلا نفســـي تُطَـــاوعنى بِشُـــحٍّ ولا مـــالي يُبَلِّغُنِـــى فِعـــالى [٤٠]

والبيتان ((على نحو عادل حكيم ؛ إذ يتقاسم الحالان أشطر البيت الأربعة، فيتحدث الصدران عن النفس الطامحة ، والعجزان على الفقر المقصر)) يكشفان عن نفس تنزع بها الفطرة إلى مكارم الأخلاق ومعالى الأعمال ، ويقعد بها قلة المال .

وربما بدا تناقض ما بين هذين وقول الشافعى السابق .. على أني أرى أن الشافعى هنا كأنما قصد إلى القول .. لو كنت أكثر مالاً، وأوفر غنى من حظي الواقع لجاءكم علم غزير وحكمة بالغة، وأخيراً فان غلبة المقطعات والنتف – فيما رأى – على شعره تعد هي الأخرى مسرباً من مسارب الحكمة؛ إذ تقتضي المقطعة لقلة أبياتها التركيز والتكثيف والانشغال بالكليات عن التفاصيل، وإهمال المقدمات لحساب الجواهر والخلاصات، وذلك مما يتصل والحكمة بسبب، فطبيعة المقطعات والنتف أقرب إلى الحكمة وأمس رحماً بها ... يشير الشافعى وفي كثير من التوفيق إلى قريب من ذلك فيقول (من مجزوء الكامل) :

لا خيـــرَ فـــي حَشْـــوِ الكـــلا م إذا اهتـــديتَ إلـــى عُيُونِـــه

والصَّـــمْتُ أَجْمَـــلُ بـــالفتى مـــن منطـــقٍ فـــي غَيْـــرِ حِينـــه

وعلـــى الفتـــى لِطِبَاعِـــهِ سِـــمَةٌ تَلُـــوح عَلـــى جَبِينـــه [٤١]

وقد أجمل الأستاذ عبد الغنى الدقر ما ساعد الشافعى على الحكمة فقال عن (حكم الشافعى وتجاربه):

(الشافعى – رحمه الله – عاقل كبير العقل ، ذكي نافذ الذكاء ، مرهف الحس ، بصير بالحياة ، ذاق ألوانها كلها ، عاش يتيماً فقيراً ، ثم أضاء نجمه ، ثم أصبح كالشمس للدنيا ، رحل إلى بلاد إسلامية عربية مختلفة ، وعرف أصنافاً من البشر ، تولي ولاية ، ورأى فيها كيف يريد القوى أن ينقضَّ على الضعيف ، وفاز بامتحان صلابة الحق والدين واليقين ، حين أزهق الباطل القوى ، وآزر الحق الضعيف ، وكان بذلك أخيذ محنة كادت تطعم لحمه سيف الخليفة ،

وماله في ذلك من شفيع إلا الله ، ثم ما مُنِحَ من قلب شجاع ، وبيان رائع ، وحجة بالغة ، نجا بها من الموت ، والموت خزيان ينظر .

من مثل هذا العقل، ومن مثل هذه التجارب تنفجر الحكم) [٤٢] .

وللشافعي حكم كثيرة تدور في مجملها حول واجبات المسلم تجاه ربه، ونحو نفسه، ودينه، ويطال حديثها قضايا المجتمع وبخاصة قضايا المال والصداقة والارتحال.

وقد ملك الشافعي زمام الحكمة نثراً وشعراً، ولئن خلص الحديث هنا عن الحكمة في شعر الشافعي ، فلن نقارب حكمه النثرية إلا بما يضيء حكمه الشعرية ويتصل بها [٤٣]

ونَفَسُ الشافعي في الحكمة النثرية أطول وأبعد، لأن النثر أطوع من الشعر، ولذا تتعدد مجالات الحكمة النثرية عند الشافعي ، فلا تخلص الحكمة الواحدة لبيان وحيد ، وإنما تتعدد جوانبها على نهج الحديث النبوي (الصوم جنة ، والصبر ضياء ...)

ومن حكمه النثرية الدالة على ذلك، قوله فيما رواه الربيع بن سليمان قال:

(قال لي الشافعي: ياربيع رضا الناس غاية لا تدرك ، فعليك بما يصلحك فالزمه فإنه لا سبيل إلى رضاهم ، واعلم أنه من تعلم القرآن جل في عيون الناس ، ومن تعلم الحديث قويت حجته ، ومن تعلم النحو هيب ، ومن تعلم العربية رقَّ طبعه ، ومن تعلم الحساب جزل رأيه ، ومن تعلم الفقه نبل قدره ومن لم يصن نفسه لم ينفعه علمه، وملاك ذلك كله التقوى) [٤٤]

فالحكم عديدة بالنص، ويجمعها ثلاثة محاور:

الأول : الإقبال على ما ينفع لتحقيق الذات ، دون الانشغال برضا الناس إذ لا سبيل إلى ذلك.

الثاني : طلب العلم وفوائد أنواعه .

الثالث : التقوى وكرامة النفس .

وطول الحكمة هنا ظل لعلاقة حميمة جمعت بين الشافعي والربيع وطال زمنها، وتكاد تكون هذه المحاور الثلاثة هي الجامعة لكل إبداعات الشافعي النثرية والشعرية على سواء؛ إذ يصح أن يندرج تحتها كل ما نصح به الشافعي غيره، ويتحدث فيه عن نفسه [٤٥] . لا يخرج عن ذلك إلا نزر يسير يتصل بالحياة وقانونها.

وتتفق موضوعات الحكمة الشعرية عند الشافعي ومحاور حكمه النثرية، فلما كان الشافعي قد ترحَّل كثيراً عن موطنه، فلم يقر له قرار إلا في النادر. فقد عانى آلام الغربة،

ولذعتـــه مخاوفهـــا. فقـــال محقًـــا عـــن تـــوترات الغريـــب النـــائي عـــن وطنـــه (من الكامل) :

إنَّ الغريـــبَ لـــه مَخَـــاوِفُ ســـازقٍ وخُضُـــوعُ مَـــذْيونٍ ، وذِلَّـــةُ وامِـــقِ
وإذا تـــــذكَّرَ أهلَـــــهُ وبـــــلاده ففـــؤادُه كجنـــاحِ طيـــرٍ خـــافِقِ [٤٦]

ويقول عن مجاملة الآخر، والفطنة في كتمان المشاعر قطعاً للشر (من الطويل):

لقـد أَسْـمَعُ القـولَ الـذي كـان كُلُّمَـا تُذَكِرنِيـــهِ الـــنفسُ ، قلبـــي يُصـــدَّع
وأُبـــدى لِمَـــنْ أبـــداه منـــي بشاشـــةً كـــأنيَ مســـرورٌ بمـــا منـــه أَسْـــمَعُ
و ما ذاك من عُجْبٍ به ، غَيْرَ أنني أرى تركَ بعضِ الشرِ ، للشرِ أَقْطَعُ [٤٧]

وبالعجز الأخير " موطن الحكمة " ما يكشف عن تسامح الشافعى وعقله، إذ إن ترك بعض الشر أقطع للشر. هكذا تقرر الأحداث، وتؤكد الوقائع والأيام. وعن ضرورة تغاضي العاقل عن عثرات الصديق يقول :

ولا تأخـــذْ بِعَثْـــرةِ كـــلِّ قـــومٍ ولكـــنْ قُـــلْ هَلُـــمَّ إلـــى الطريـــقِ
فـــإن تأخـــذْ بعثـــرتهم يقُلُّـــوا وتبقـــى فـــي الزمـــان بـــلا صـــديق [٤٨]

وعن ضرورة أن يرعى المرء مصالحه بذاته ، ويقوم على حاجته بنفسه ؛ يقـول :

ماحـــك جلـــدَكَ مثـــلُ ظفـــرك فتـــولَّ أنـــت جميـــع أمـــرك
وإذا قصـــــدتْ لحاجـــــةٍ فاقْصِـــدْ لِمُعْتَـــرِفٍ بِقَـــدْرِك [٤٩]

وعن الحذر من الصاحب المتلوِّن يقول(الكامل) :

وَدَعِ الـــذين إذا أتـــوك تَنَسَّـــكُوا وإذا خَلَـــوا فهـــم ذِئـــابُ خِـــرَاف [٥٠]

وعن ضرورة القناعة يقول الشافعى :

العبـــــدُ حـــــرٌ إن قَنَـــــعْ والحُـــــرُّ عبـــــدٌ إن طَمَـــــع
فـــــاقنعْ ولا تطمـــــعْ فـــــلا شـــيءَ يَشِـــينُ سِـــوى الطمـــع [٥١]

وعن هَمِّ ذي الهمة يقول (من الكامل) :

وأحـــق خلـــق الله بـــالهمِّ إمـــرؤٌ ذو هِمَّـــةٍ يُبلـــى بـــرزقٍ ضَـــيِّق [٥٢]

وعن ضرورة الاجتهاد والكد في طلب المعالي يقول (من الوافر) :

بِقَـــدْرِ الكـــدِّ تُكتســـبُ المعـــالي ومـــن طلـــب العـــلا سَـــهَرَ الليـــالي [٥٣]

وعن الرضا والسخط يقول (من الطويل) :

وعين الرضا عن كل عيبٍ كَليلةٌ ولكنَّ عينَ السُّخْطِ تُبْدِى المساوِيَا[٥٤]

وعن الاستغناء عن الناس يقول (من الطويل) :

كلانا غَنِيٌّ عن أخيه حياتَه ونحن إذا متنا أشدُّ تَغَانِيَا [٥٤]

ومن الحكمة قول الشافعي عن التعليم في الصغر:

تَعلَّمْ يافتى والعودُ رطْبٌ وطَيْفُكَ لَيِّنٌ والطَّبْعُ قَابِل

فإنَّ الجهلَ واضِعُ كلِّ مالٍ وإن العلمَ رافعُ كلِّ خَامِل

فَحَسْبُكَ يا فتى شرَفاً وعِزاً سكوتُ الحاضرين وأنت قائل[٥٥]

وعن ضرورة اهتمام المرء بما يعنيه، وعدم التفويض في خصوصياته يقول الشافعي (من مجزوء الكامل):

ماحسك جلدك مثل ظفرك فتول أنت جميع أمرك

وإذا قصدت لحاجة فاقصد لمعترف بقدرك[٥٦]

المبحث الثاني : الإبلاغية

الأدب ومنه الشعر يتصل اتصالاً وثيقاً بعملية الإبلاغ، إذ يصدر كلاهما عن مبدع ليتلقاه مُتَلقٍّ ، ولذا فلا بد أن يحمل رسالة ، يستوي أن تكون ذاتية أو جمعية ، ولا يهم أن يختلف المتلقون فيما يتعلق بالجانب القيمي ، وذلك بسبب من نسبتيه المقررة اعتماداً على اختلاف الثقافات والميول والوجهات ، فلكل وجهة هو موليها .

ويتصل شعر الشافعي بأدب الفقهاء، بالنظر إلى المبدع وليس إلى الإبداع ذاته .. ولذا فإن ملمح الإبلاغ فيه يعد من أهم ملامحه ، وإن لم يكن الأهم بإطلاق، خاصة بعد تحوله عنه إلى الفقه؛ إذ ينبغي على أمثال الشافعي ممن تصدروا مجالس التعليم وتصدوا للفتيا والإصلاح أن يؤدوا حق الأمة كاملاً غير منقوص في التوعية والتوجيه والإبلاغ والنصح .

وليست الإبلاغية بدعاً في الشعر العربي ، فالشعر قديماً كان أحد أهم أدوات الإعلام الرئيسة التي تجمع بين الإبلاغية والجمالية في حياة العرب ، ولذا فقد أدى الشاعر القديم ، انطلاقا من إحساسه بالمسئولية دوره الإبلاغي غير ناكث ولا حانث ، فنَّبه القوم إلى الأخطار ونصح لهم سعياً إلى النجاة ، وهو إذّاك يثق برأيه ويرى لزاماً على قومه الاستجابة له ، فهو الناصح الأمين .. هذا لقيط بن يعمر الإيادي ينذر قومه من غزو كسرى إياهم فيقول (من البسيط) :

أَبْلِـــغْ إِيَـــاداً وخَلِّـــلْ فـــي سَـــرَاتِهِم إني أرى الرأي إن لم أُعْصَ قد نَصَعَا (٥٧)

وما فعل الشاعر القديم ذلك إلا حرصا على قومه، وإلا ضناً بهم أن يلحقهم أذى .. ينخل لهم مخزون رأيه وعقله ليجنبهم العثار والزلل، ولأنه يجهد نفسه في نصحهم فإنه يجد مرارة. حين ينصرف القوم عن نصحه، فيقع المحذور .. يروي أن دُرَيْدَ بنَ الصِّمَّة قد نصح لأخيه " عبد الله " ألا يخيم بمنعرج اللوي بعد أن أغار على غطفان وانتهب مالها، إذ لن تغفل غطفان عن مالها .. فلم يستجب .. فلحقته غطفان وقتلته، واستنقذت مالها ، واستاقت مال بني الصمة ، فقال دريد يرثي أخاه ، ويألم لما أصابه (من الطويل) :

وقلـــت لعَـــزَّاض وأصـــحاب عـــارِضٍ ورهـــطِ بنـــي السَّـــوْداء والقـــومُ شُـــهَّدي
(...) أَمَـــرْتُهُمْ أمـــري بِمُنْعَـــرِجِ اللِّـــوَى فلـــم يســـتبينوا الرشـــدَ إلا ضُـــحَى الغـــدِ
فلمَّـــا عَصَـــوني كنْـــتُ مِـــنْهم وقـــد أرى غـــوايَتَهم وأننـــي غيـــرُ مهتـــدي
ومـــا أنـــا إلا مـــن غَزِيَّـــةَ إن غَـــوَتْ غويـــتُ وإن ترشـــد غزيـــةُ أرشُـــدِ (٥٨)

والشاعر القديم هنا يثبت وفاءه لعشيرته، وارتباطه المصيري بها، الأمر الذي يقرر حميمية العلاقة بين الشاعر وقومه على نحو سيعززه الإسلام، ويدعمه الوعي الجمعي لعهد الشافعي، فتبدو فيه الإبلاغية على نحو أوثق عرى، وأكثر تنوعاً في المناحي والأرجاء.

ومن شعر الإبلاغية السائر على نهج دريد، والإيادي قول الشافعي:

يـا راكبـاً قـف بالمُحَصَّـبِ مـن منـيً واهتـــفْ بقاعـــدِ خَيْفهـــا والنَّـــاهِضِ
سَـحَراً إذا فـاض الحجـيجُ إلـى منـىً فيضـــاً كملـــتطمِ الفـــرات الفـــائض
إن كـــان رفضـــاً حُـــبُّ آلِ محمـــدٍ فليشـــهدِ الـــثقلانِ أنـــي رافضـــي (٥٩)

ويتأطر شعر الشافعي الإبلاغي عبر نمطين:

الأول : إبلاغية الذات .

الثاني : إبلاغية الآخر .

إبلاغيـة الـذات :

يكشف الشافعي في إبلاغيه الذات عن ذاته وحياته، وقد يبدو جمال هذا الشعر باهتاً، ولغته جادة لأنها كالوثيقة .. تحكي عن خبايا النفس ومكنونات الروح، والكشف عنها يسمح لنا بالتعرف على الشافعي، وعلى شيء من مزاجه وأخلاقه .. وتنقلاته وأزماته .. بحيث يمكن أن يكون شعره وثيقة تؤرخ للشافعي الإنسان.

وقد تحدث كثيرون عن أنفسهم قديماً وحديثاً، فُوفِّق بعض وأخفق بعض، ذلك أن الحديث عن النفس قد يضخمها ويرفعها إلى مالا تستحق حينما يكون المتحدث دعيًّا متعالياً ، مغروراً أو مشبوهاً .. لكن الأمر يختلف حينما يصدق المتحدث مع نفسه ، ويقدر للآخر ذكاءه ووعيه في إطار يتسم بأقصى درجات الموضوعية الممكنة، وبسرد الأحداث لا من داخلها بل من خارجها .... يقول الأستاذ أحمد أمين في " حياتي " : (إن حديث الإنسان عن نفسه – عادة – بغيض ثقيل ، لأن حب الإنسان نفسَه كثيراً ما يدعوه أن يشوب حديثه بالمديح ولو عن طريق التواضع أو الإيماء أو التلويح ، وفي هذا المديح دلالة على التسامي والتعالي من القائل ، ومدعاة للاشمئزاز و النفور من السامع والقارئ ، ولذلك لا يستساغ الحديث عن النفس إلا بضروب من اللباقة وأفانين من اللياقة) [٦٠]وللشافعي من ورعه وعلمه ما يجنبه عثار الحديث عن النفس ، فحديثه عن ذاته إبلاغي ... رسالي .... ذو غاية نبيلة تسمو عن الصدق مع النفس إلى الأخذ بيد الآخرين نحو مكارم الأخلاق ونبيل العادات ومعالي الأمور .... وفي شعر الشافعي إبلاغ يطال المكان والزمان والإنسان، وحديث عن نوازل الزمان التي ألمت به أوعاينها، وفيه حديث عن الذات المبدعة في طموحها ووجلها؛ فيما تحب وتكره، وفيه أيضا رؤية الشافعي للدنيا والصداقة، وهكذا بحيث يمكن أن يكون الشعر الثابت للشافعي دليلنا إلى ذاته ... وربما عصره ومجتمعه.

(١) المكان:

عاش الشافعي حياته متنقلاً من غزة إلى مكة، ومصر واليمن والعراق والمدينة... ولم يحمل الشافعي على أي من المدن التي نزلها، ربما لأنه يراها كلها بلاد الله .. تتجلى فيها جميعا قدرته ورحمته، وربما لأنه أحب أهل كل هاتيك البلاد وأحبوه ... أما موطن ميلاده؛ غزة فيشتاق إليها كثيراً إذ يقول (من الطويل):

وإنـــي لَمشـــتاقٌ إلـــى أرضِ غـــزَّةٍ ... وإن خـــانني بعـــدَ التفـــرقِ كِتمـــاني

سـقى اللهُ أرضـاً لـو ظفـرتُ بتُربهـا ... كحَّلتُ به من شدَّة الشوقِ أجفاني[٦١]

وقد كشف الشافعي عن توقه لمصر ووجله من نزولها فقال (من الطويل):

لقد أصبحتْ نفسي تتوقُ إلى مِصْرٍ ... ومـنْ دُونهـا قطـعُ المَهَامِـه والقَفْـرِ

فـــواللهِ مـــا أدرى أَلِلْفـــوزِ والغنـــى ... أُسـاقُ إليهـا أم أسـاق إلـى القبـرِ[٦٢]

ويتأسس موقف الشافعي من المكان أحيانا على موقفه من الإنسان في هذا المكان، فربما فرض الترحل على الشافعي أن ينزل مواطن لا يرتضي أناسها، ولا يرتاح إلى مخالطتهم، ومن مروءة الشافعي هنا ألا يعرف بالمكان، فقد روى له حرملة بن يحيي أنه قال (من الطويل):

وأنزلني طولُ النَّوَى دارَ غُربةٍ ... يُجَاورني من ليس مثلي يُشَاكِلهْ
فجانبته حتى يقال سجيَّةٌ ... ولو كان ذا عقل لكنتُ أعاقلهْ[٦٣].

(٢) الإنسان:

أحب الشافعي في الإنسان أن يكون هَيِّناً لَيِّناً؟، يهشُ ويبشُ لأخيه الإنسان، يستر عوراته ويحفظه حياً وميتاً ... ولقد كان الشافعي كذلك كما تحكي سيرته وشعره، وتمنى لو لقي هذا الصنف النادر فقاسمه المال والأجر. يقول الشافعي (من الطويل):

أُحبُّ منَ الإخوانِ كلَّ مُوَاتِ ... وكلَّ غضيضِ الطرف عن عثراتي
يصاحبني في كل أمر أحبُّه ... ويحفظني حياً وبعد وفاتي
فَمَنْ لي بهذا ليت أنِّي أصبتُه ... فقاسمته مالي مع الحسنات[٦٤]

وبالبيت الثالث إشارة إلى معاناة الشافعي من الناس، وفقدانه الخِلَّ الوفيَّ المُواتي .. إلى الحد الذي يدفعه – إن هو ظفر به – إلى التخلي له عن قسيم ماله وحسناته!! والشافعي هنا يتفق على نحو ما مع قول الشاعر القاصد إلى استحالة وجود الخل الوفي كاستحالة الغول والعنقاء حين قال:

لما رأيت بني الزمانِ وما بهم ... خِلٌّ وفيٌّ للشدائدِ أصطفى
فعلمت أن المستحيلَ ثلاثةٌ ... الغول والعنقاء والخِلُّ الوفى

على أن شعر الشافعي لا يقول بالاستحالة وإنما بالندرة التي تقرر قيمة الصديق الذي عناه الشافعي وابتغاه، وهو عين ما قصده في قوله (من الطويل):

تصفحت إخواني فكان أقلهم ... على كثرة الإخوان أهل ثقات[٦٥]

وفي شعر الشافعي ما يقرر حبه آل محمد وقبوله بالرفض إن كان الرفض عندهم يتلبس بحب آل النبي الكريم، فقد جاء في " معجم الأدباء " فيما حدث به الربيع بن سليمان قول الشافعي (من الكامل):

ياراكباً قِفْ بالمحصَّب من منيً ... واهتفْ بقاعد خَيْفِها والناهضِ
سحراً إذا فاضَ الحجيجُ إلى منيً ... فيضاً كملتطم الفرات الفائض

إن كـــان رفضـــاً حـــبُّ آل محمـــدٍ فليشـــهد الـــثقلان إنـــي رافضـــي [٦٦]

ونلتقى بقريب من هذا المعنى في توالي التأسيس، وإن كان قبول الشافعى بالرافضية فيه يتصل بعلي تحديداً، فقد روى عن أبى حاتم قال (من الطويل):

(أنشدنا المزنى : سمعت الشافعى رضي الله عنه ينشد :

إذا نحـــن فَضَّـــلْنا علـــيًّا فإننـــا روافـضُ بالتَّفْضِـيلِ عنـدَ ذوي الجهـل

وفضـــلُ أبـــى بكـــرٍ إذا مـــا ذكرتُـــه رُمِيـتُ بنَصْـبٍ عنـد ذكـرىَ لِلفضـلِ

فـــلا زلـتُ ذا رفـضٍ ونصـبٍ كلاهمـا بحُبَّيهمـا حتـى أوسَّـد فـي الرَّمْـلِ[٦٧]

والشافعى يكشف هنا عن حيرة العالم الجريء بين الفرق المختلفة، وعن شيء مازال يضرب بأطنابه في بلاد الإسلام؛ إذ يرمي بعضُ المسلمين – ممن ضاق أفقهم وانحسر وعيهم وزاغت أبصارهم – مخالفيهم في الرأي أو المذهب بالتوهين أو.. التخوين، فالشافعى إن مدح علياً نعتَه ذوو الجهل بالرفض، وإن أنصف أبا بكر رمي بالنصب .. وبالبيت الأخير بيان يكشف عن جانب من نفس الشافعى الصلدة التي تصدع بالحق ولا تخشى في الحق لومة لائم .. فالسعي إلى إرضاء الخلق بسخط الخالق ليس من شيمه على كل حال.

وفي شعر الشافعى ما يقرر أنه عاش يَفْرَقُ من البشر، ويتحسب لاختلاطه بهم، ويؤثر العزلة إيثاراً للسلامة .. ولربما عاني الرجل من الناس – خاصة مع كثرة ترحله – ما دفعه إلى أن يسلك هذا المسلك الاحترازي، لينهض بما هيأه الله له من تحصيل العلم ونشره، والنصح للأمة بما ينفعها .. وربما حيَّا الشافعى عدوه، وبشَّ في وجه مبغضه ليسلم من شره .. فالعفو والإحسان ديدنه في معاملة الناس؛ يقول (من البسيط):

لمَّـــا عَفَـــوْتُ ولـــم أحقـــد علـــى أحـــدٍ أرحـــتُ نفســـيَ مـــن غَـــمِّ العَـــدَاواتِ

إنـــي أُحَـــيِّ عـــدوِّى عنـــد رؤيتِـــهِ لأدفـــعَ الشـــرَّ عنـــى بالتحيَّـــات

وأُحْسِـــنُ البِشْـــرَ للإنســـان أَبْغَضُـــهُ كأنـــه قـــد حشـــي قلبـــى محبَّـــات

ولســـتُ أســـلمُ مـــن خـــلٍّ يســـالمني فكيـــف أســـلم مـــن أهـــلِ العـــداوات

ولســـتُ أســـلم مِمَّـــن لـــيس يعرفنـــي فكيـــف أســـلم مـــن أهـــل المـــودَّات[٦٨]

ويستدعى ذكر الشافعى إلى ذاكرة المسلم طيفاً من المعانى والخواطر والأنحاء؛ إذ يقفز إليها حينذاك .. الفقه وتجديده ... والوعي بالواقع وأهميته .. وطلب العلم والترحل من أجله .. والحديث وحمله ، وربما غزة ومكة مع مصر والعراق والمدينة .. والحديث عن الشافعى وعلاقته

بالإنسان ونظره للزمان يلقى في روعنا بعد استقراء شعره – أن المعاناة هي تقطير لحياة الرجل وهي الكلمة المفتاحية التي تفض مغاليق نظرة الشافعى البَرِمة بالإنسان وربما الزمان في بعض الأحيان. لقد عاش الشافعى يعاني قلة حظه من متاع الدنيا، ولذا كثر حديثه عن قيمة الصداقة، وعن لذع الفقر، ويبدو في شعره شيء من الضيق والحرمان يدفعه للتعجب أحيانا من اختلال الموازين، وانقلاب الأوضاع. ويمكننا أن نتفهم تبرم الشافعى بالبشر وانطواءه على ذاته حين قال فيما حدث به محمد بن إبراهيم قال:

(حدث شعيب بن محمد الدبيلي قال أنشدنا الربيع عن الشافعى (من البسيط):

ليتَ الكلابَ لنا كانت مُجَاوِرَةً ... وليتنا لا نرى مِمَّا نرى أَحَدَا

إن الكلابَ لَتَهدا في مَوَاطنها ... والناسُ ليس بهادٍ شرُّهم أَبَدَا

فاهربْ بنفسك واستأنسْ بوحدتها ... تبقى سعيداً إذا ما كنتَ مُنْفَرِدَا [٦٩]

والشافعى هنا صنو حبيبه على بن أبى طالب حين اعتزل الناس رفضا لحالهم أو غفلتهم التي تهضم حقوق الفائقين ، ولا ترعى لهم حقاً في تقديم أو تقدير أو مسالمة !

وربما كانت الأبيات اللاحقة بهذه في "حيلة الأولياء " مبررا نجد به للشافعى بعض العذر في أن يضعف أحياناً خلق التسامح والإحسان لديه، إذ تمنى له الموت رجالٌ، فقد روى حرملة أنه سمع الشافعى يقول (من الطويل) :

تَمَنَّى رجالٌ أن أمُوتَ وإن أَمُتْ ... فتلك سبيلٌ لستُ فيها بِأَوْحَدِ

فَقُلْ للذي يبقى خِلاف الذي مضى ... تَهَيَّأْ لأخرى مِثْلِهَا فكأنْ قَدِ [٧٠]

وفي البيتين روح إسلامية منصفة تنأي عن الفحش أو الجهر بالسوء .. فالأول ينهج سبيل الآية الكريمة؛ تنعى لمحمد ذاته وأمته في سورة الزمر (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ) الآية ٣٠.

والبيت الثاني يرد الإساءة بقدرها دون تجاوز متمثلاً خلق الأنبياء ومنهم نوح عليه السلام، حين رد على قومه سخريتهم بسخرية مماثلة، قال تعالى:

(وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِنْ قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِنْ تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنْكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ) الآية ٣٨ هود.

وفي شعر الشافعى ما يشير إلى إساءة بعض السفهاء ممن تتطَّعوا فخالفوا عن أمره، إذ يقول (من الوافر) :

ومنزلةُ السَّفيهِ من الفقيه ... كمنزلةِ الفقيهِ من السفيهِ

فهـــذا زاهـــدٌ فـــي قُـــرْبِ هـــذا وهـــذا فيـــه أَزْهَـــدُ مِنْـــهُ فيـــه
إذا غلـــب الشـــقاءُ علـــى ســـفيهٍ تَنَطَّـــعَ فـــي مخالفـــةِ الفقيـــه (٧١)

ويروى الشافعي ما يكشف عن تبرمه من جهل الناس حق الأديب في قوله (من البسيط):

أصـبحتُ مُطَّرحـاً فـي معشـرٍ جهلـوا حـقَّ الأديـب فبـاعوا الـرأسَ بالـذنبِ
والنـــاسُ يجمعهـــم شـــملٌ وبيـــنهمُ فـي العقـل فـرقٌ وفـي الآداب والحسـب
كمثلمـــا الـــذَّهبُ الإبريـــزُ يَشْـــرَكُهُ فـي لونـه الصُّـفْرُ والتفضـيلُ للـذهب
والعـودُ لـو لـم تَطـبْ منـه روائحُـهُ لم يفرقِ الناسُ بين العودِ والحطب(٧٢)

وقولـه (مطَّرحـاً) يبـرز مـرارة الشـعور بـالهوان والضـياع، حـين تجهـل العشـيرة قدر الأديب، يدعم هذا (أعنى إبراز المرارة) الدال: (حق) إذ لا يفتئت الشافعى على المعشر .. الجاهل .. فيطالبه بما ليس من حقه! على أن الشافعى ينتصف لنفسه بنفسه وعلى طريقته حين يرى بعين المؤمن الراضي .. والعالم المتسامح أن الناس شركاء في المظهر لكنهم مختلفون في قوة العقل والتزيُّن بالآداب وأصالة الحسب، تماماً مثلما يشبه النحاس الذهب في صفرة الظاهر، لكن للذهب قيمته التي لا يجاريه فيها أى أصفر .. وكذلك العود والحطب .. والشافعى هنا بعد انتصافه لذاته كأنه يدعو الإنسان. أي إنسان – إلى ألا ينزل بقدره حينما يهضمه الآخرون حقه، إذ قيمته كامنة فيما يقدمه للآخر وينفعه به .. والشافعى هنا يدعو إلى التسامح والترفع. ويدفع الانهزام النفسى عن ذات المبدع كلما أُهْمِلَ أو اطُّرح! ولا كرامة لنبي في قومه!

وقد عاش الشافعى خفيف الحاذ من حطام الدنيا؛ هو يقيناً لم يسع إليها، وربما هي الأخرى لم تَسْعَ إليه؛ إذ لم يُخْلَقْ لها ولم تخلق لمثله، ولذا فلم يتميز الشافعى عن غيره من عموم الناس بلبس أو طعام ... يروى أنه لما خرج إلى مصر قُطع عليه الطريق، فدخل بعض المساجد وليس عليه إلا خرقة، فدخل الناس وخرجوا فلم يلتفت إليه أحد، فقال (من الطويل):

علـــيَّ ثيـــابٌ لـــو يُبَـــاعُ جميعُهـــا بفلـــسٍ لكـــان الفلـــس مـــنهنَّ أكثـــرا
وفـــيهن نفـــسٌ لـــو يُقَـــاسُ ببعضـــها نفـــوسُ الـــورى كانـــت أَجَـــلَّ وأكبـــرا
ومـــا ضَـــرَّ نصـــلَ السـيف إخـــلاقُ غمـــده إذا كـان عَضـباً أيـن وجَّهتـه يـرى (٧٣)

والشافعى في شعره غير منهزم لضيق حظه المادي من الدنيا، فنفسه وافرة الحظ إيماناً وأخلاقاً؛ فلئن قعد به ماله، لقد ارتقت به أخلاق نفسه وأعماله ، والشافعى حريص كل مرة

يعضه الدهر فيها أن يرى من نواميس الكون وأحوال الوجود – وربما ليس حرصاً في الرؤية بل إيمان على الحقيقة مستقرّ في الروح – ما يطامن من غلواء نفسه ، إذ هو حينذاك منسجم مع الوجود ، متسق مع الكون ، وينصل السيف العضْب الباري .. في الغمد الخلق يشَبِّه الشافعيُّ فقيرَ المال .. غنى الخال.. وما هذا الفقير إلا الشافعى ذاته .

ويحكى الشافعى عن ذاته أنه بُلِيَ بتكاثر البلايا عليه ، فَكُنَّ أربعا ما بين : وسواس إبليس وإغرائه ، وخداع الدنيا وزخرفها ، ومعاندة النفس وتزيينها ... والهوى .. كلها يرميه عن قوس ذي صرير ، فيقول (من الكامل) :

إنـــي بُليـــتُ بـــأربعٍ يرمينَنِـــي ... بالنَّبْـلِ عـن قـوسٍ ، لهـنَّ صـريرُ :
إبلـــيسُ والـــدنيا ونفســـي والهـــوى ... أنَّـــي يَفِـــرُّ مـــن الهـــوى نحريـــر (٧٤)

ويشير العجز الأخير إلى تعاطي الشافعى الهوى وتأثره به ، ولكن أي هوى تهَّواه الشافعى ؟! لا ندري!

ولقد فقه الشافعى الدنيا وأحابيلها ، وأدرك خطر التكالب عليها ، ورآها غروراً وباطلاً كالسراب ، وجيفة تتجاذبها الكلاب ، فلم يسع إليها .. يقول في ذلك (من الطويل) :

ومَـــنْ يـــذقْ الـــدنيا فـــإني طَعِمْتُهَـــا ... وَسِـــيقَ إلينـــا عَـــذْبُهَا وشَـــرابها
فلـــم أرهـــا إلا غـــروراً وبـــاطلاً ... كمـــا لاح فـــي ظهـــرِ الفـــلاةِ ســـرابُها
ومـــا هـــي إلا جيفـــةٌ مســـتحيلةٌ ... عليهـــا كـــلابٌ ، هَمُّهُـــنَّ اجتـــذابُها
فـــإن تَجْتنبهـــا كنـــتَ سِـــلمًا لأهلهـــا ... وإن تجتـــذبها ، نَازَعَتْـــكَ كلابُهـــا
قَطُـــوبَي لـــنفسٍ أَوْطَنَـــت قَعْـــرَ دارِهـــا ... مُغَلَّقَـــةَ الأبـــوابِ مَرْخِـــيٌّ حجابُهـــا (٧٥)

وفي النص تتلبَّس إبلاغية الذات بإبلاغية الآخر على نحو ما نفهم من تحولات الضمير عن المتكلم إلى المخاطب بنهاية النص :(فإن تجتنبها كنت سلما لأهلها). فالشافعي هنا تحول عن الذات إلى الآخر، مستفيداً من تجربته ورؤيته الخاصة للدنيا ، وناصحا لغيره بما يطلبه لنفسه ، وهذه هي أخلاق الرائد الذي لا يكذب أهله .

والنص نموذج لهذا التعانق الإبلاغي ، إذ يتراوح فيه الخطاب بين الآخر والذات وربما سمح طول النص بذلك ، وأسعف موضوعُه الشافعيَّ لينصح لقومه انطلاقا من رسالية شعره.

ولئن بدا مما سبق أن الشافعى ساخط على الحياة بَرِمٌ بالأحياء ، فليس ذلك مما استقر في ذاته ، فنفسه راضية ، تتسم بالتسليم والقناعة ، وما بدا في حين تبرُّماً .. إنما يكشف عن لحظة يعجب فيها الشافعى لاختلال الموازين .. فلربما كان من الصالح للإنسان والمكان أن يهنأ

أمثال الشافعي وأن توادعهم الدنيا ليتفرغوا لصالح أمتهم ... دون اهتمام لأمر الرزق أو انشغال بتحصيل الضرورات من أمور الحياة .

وفي شعر الشافعي ما يقرر دور القدر في تحديد منازل الرجال وأقدارهم وحظوظهم من ذلك قوله (من الكامل) :

إنَّ الـذي رُزِقَ اليسَـارَ فلـم يَنَـلْ ... أجـراً ولا حمـداً لَغَيْـرُ مُوَفَّـقِ (...)
الجِـدُّ يُـدنِي كـلَّ أمـرٍ شاسـعٍ ... والجَـدُّ يفـتح كـلَّ بـابٍ مغلـق
فـإذا سـمعتَ بـأنَّ مَجْـدُوداً حـوى ... عـوداً فـأورقَ فـي يديـه فَحَقِّـقِ
وإذا سـمعت بـأن محرومـاً أتـي ... مـاءً ليشـربه فَغَـاصَ فصـدِّق
ومـن الـدليل علـى القضـاء وكونِـهِ ... بـؤسَ اللبيـبِ وطيـبَ عـيشِ الأحمـق
وأحـقُّ خلـقِ الله بـالهمِّ امـرؤٌ ... ذو همـةٍ يبلـى بـرزقٍ ضـيِّق
وَلَرُبَّمـا عرضـتْ لنفسـيَ فكـرةٌ ... فـأودُّ منهـا أنَّنـي لـم أُخْلَـقِ
لـو كـان بالحيَـلِ الغِنـى لوجـدتَني ... بنجـومِ أقطـارِ السـماءِ تعلُّقـي
لكـنَّ مـن رُزِقَ الحِجَـا حُـرِمَ الغنـي ... ضِـدانِ مفترقـان أي تَفَـرُّقِ[٧٦]

فالجد (الحظ) يسير وفقاً لإرادة ومشيئة ليست على أي الأحوال كما يريد البشر! ومن جديد ينشب ألم الحرمان أظفاره في نفس الشافعي فيؤذيه ويوجعه. والبيت السادس صادع .. صارخ .. ذاهل للضدين المفترقين.

والشافعي بالنص يبدو تامَّ التسليم والرضا بالقضاء، وحكمه، وإن لم يصادف هوىً أو يحقق مطمحاً.

وفي شعر الشافعي تسليم من نوع آخر، مأتاه ألا يجزع المؤمن من نوازل الأيام فيرى ثابت الجنان لا يبكي اللبن المسكوب .. فحينما تولى شباب الشافعي عنه وابيضَّ أسودُه، وتنغَّص مستطاب أيامه لم يجزع لنازلة الليالي .. وإن ذهبت عنه قوته، وحل به خراب العمر .. يقول (من الطويل) :

خَبَـتْ نـارُ نفسـي باشـتعال مَفَـارقي ... وأظلـمَ ليلـي ، إذ أضـاء شِـهَابُها
أَيَـا بومـةً قـد عشَّشـتْ فـوق هـامتي ... علـى الـرُّغْمِ منـي ، حـين طـار غرابُهـا
رأيـتِ خَـرابَ العمـر منـي ، فزرتِنـي ... ومـأواكِ مـن كـلِّ الـديار خرابُهـا
أأنعـم عيشـاً ، بعـدما حـلَّ عارضـي ... طلائـعُ شـيبٍ ، لـيس يغنـى خضـابها
وعـزةُ عمـرِ المـرءِ قبـل مشـيبِهِ ... وقـد فنيـت نفـسٌ تـولَّى شـبابها

إذا أسودَّ لونُ المرءِ وأبيضَّ شعرُه ... تَنَغَّصَ من أيامه مُستطابُها
فَدَعْ عنك مطلابَ الأمورِ ، فإنها ... حرامٌ على نفسِ الزكيِّ ارتكابها
ولا تمشِيَنْ في منكب الأرضِ فاخراً ... فعمَّا قليلٍ يحتويك ترابها[٧٧]

ونلقى في شعر الشافعى حديثا عن أعماق الذات ؛ ما تفضله وترتاح إليه ، ما تلتزمه من خلق أو تأوى إليه من عمل ، ففيه تفضيله للسهر في تنقيح العلوم ولصريرِ الأقلام على الصفحات ولحلِّ عويصة درس على ما عداها من متاع الدنيا كما في قوله بنص : " ألذ لي " (من الكامل)

سهري لتنقيحِ العلومِ ألذُّ لي ... من وَصْلِ غانِيَةٍ وطِيبِ عِنَاقِ
وصَريرُ أقلامي على صفحاتها ... أحلى من الدَّوْكَاءِ والعُشَّاق
وألذُّ من نَقْرِ الفتاة لِدُفِّها ... نَقْرى لأُلْقِي الرَّمْلَ عن أوراقي
وَتَمَائِلي طرباً لحلِّ عويصةٍ ... في الدرس أشهى من مُدَامَةِ ساق [٧٨]

ويتحقق الرضا عن الذات عند الشافعى حينما يُوَفَّقُ لأداء الواجب، إذ يراه حقاً لا واجباً، فيسارع إلى المكرمات لا ينى .. روى (عن خيثمة بن سليمان بن حيدرة قال: جاء رجل إلى الشافعي فقال له: أصلحك الله، صديقك فلان عليل، فقال الشافعي والله لقد أحسنت إليَّ و أيقظتني لمكرمة ودفعت عني اعتذاراً يشوبه الكذب، ثم قال: ياغلام هات السبتية، ثم قال: للمشي على الحفاء على علة الوجاء في حر الرمضاء من ذي طول أهون من اعتذار إلى صديق يشوبه الكذب، ثم أنشا يقول (من الطويل) :

أرى راحةً للحقِّ عند قضائِهِ ... ويثقلُ يوماً إن تركت على عَمْدِ
وحسبك حظّاً أن ترى عُذْرَ كاذبٍ ... وقولك لم أعلمْ وذاك من الجهد
ومن يقضِ حق الجارِ بعد ابنِ عمه ... وصاحبه الأدنى على القرب والبعد
يَعِشْ سيداً يستعذب الناسُ ذِكْرَهُ ... وإن نابه حقٌّ أتَوْهُ على قصد [٧٩]

فالشافعى يرى أن أداء الحقوق لأهلها مدعاة لحفظها ، إذ يصبح أداء الحق خلقاً عاماً ، وطابعاً مشتركاً بين الجميع ، ولا يبخل واحد على آخر بحقه ، وكأني بالشافعى هنا يعبر عن نفس سوية تشعر بالدَّيْنِ كلما دعيت إلى واجب فتمهلت أو تباطأت ... وحين تضعه عن كاهلها بأدائه تتنفس الصعداء ، وتشعر براحة المدين أدي دينه .

والشافعى كذلك متسامح يهمل الأحقاد عليه، ليستريح ، فقد عاش الرجل يبحث عن الهدوء الذي يسعفه على أداء دوره الذي هُيِّئ له ، فلم يناوش أو يشاكس أو ينشغل بمن انشغلوا به فنغَّص عليهم عيشهم ، وكدر عليهم حياتهم ، وأصاب نفوسهم بالتوتر وأرواحهم بالقلق ! [٨٠]

إبلاغيـة الآخـر :

الشافعى واحد من رواد الإصلاح وعشاق الفضيلة وطلاب الحقيقة .. نأي بنفسه عن الدنيا ، وإن عجم عيدانها فتمثلت له عدواً .. تحامى شره ، ومن ثم نجح وأفلح .. ولأن (الشعر أخلد من النثر ، لكثرة رواته وعظيم تأثيره) [٨١] فقد شاء الشافعى لبعض توجيهاته السديدة وآرائه القويمة أن تكون شعراً يسهل تناقله ليعم النفع ، وربما أراد من ذلك ألا ينقطع عمله .. من علم يُنْتَفَعُ به ، وقد نقل الشافعى خبراته لبني قومه فحثهم على التقوي ، ودعاهم إلى الرضا والتسليم ، ورغب إليهم الترحل والسفر ، وأوقفهم على سمات الصديق الوفي .. يحث الشافعى غيره على طلب الزهد وتحصيل التقوى فيقول (من الوافر) :

يُرِيـدُ المـرءُ أن يُعْطَـي منـاه ... ويـأبَى اللهُ إلاَّ مـا أَرَادَا
يقـولُ المـرءُ فائـدتي ومـالي ... وتقـوي الله أفضـلُ مـا استفادا [٨٢]

والشافعي راض بالقضاء والقدر ، يستوي عنده ما ينزل به ، يقول (من الوافر) :

دَعِ الأيـامَ تفعـلُ مـا تشـاءُ ... وَطِـبْ نفساً إذا حكـم القضـاءُ
ولا تجـزعْ لحادثـةِ الليـالي ... فمـا لحـوادث الـدنيا بقـاء
وَكُـنْ رجـلاً علـى الأهـوال جَلْـدا ... وشـيمتُك السـماحةُ والوفـاء
ورزقُـك لـيس يُنْقِصُـهُ التَّـأنِّي ... ولـيس يزيـدُ فـي الـرزق العنـاء
ولا حـزنٌ يـدومُ ولا سـرورٌ ... ولا بـؤسٌ عليـك ولا رخـاء
إذا ماكنـتَ ذا قلـبٍ قنـوعٍ ... فأنـت ومالِـكُ الـدنيا سـواء [٨٣]

والرزق عند الشافعى رحمه الله سر من أسرار الله لا تدركه العقول ولا تكتنهه الأفهام ... يقول (من البسيط):

كَـمْ مـن قـويٍّ ، قـوى فـي تَقَلُّبِـهِ ... مهـذب الـرأي ، عنـه الـرزقُ مُنْحَـرِفُ
ومـن ضـعيفٍ ، ضـعيفِ العقـلِ مخـتلط ... كأنـه مـن خلـيجِ البحـرِ يَغْتَـرِفُ
يـدلُّ هـذا إلـى أن الإلـهَ لـه ... فـي الخلـق سرٌّ خفـيٌّ ، لـيس يَكْتَـنِفُ [٨٤]

وهو يدعو إلى التزود بالإيمان، والتخفف من زينة الدنيا الفانية، فيقول (من البسيط):

يـــا مَـــنْ تعـــزَّزَ بالـــدنيا وزينتِهـــا الـــدهرُ يـــأتي علـــى المبنـــيِّ والبـــاني
ومـــن يكـــنْ عـــزُّه الـــدنيا وزينتُهـــا فعـــزُّه عـــن قليـــلٍ زائـــلٍ فـــانى
واعلـمْ بـأن كنـوزَ الأرض مـن ذهـبٍ فاجعـل كنـوزَكَ مـن بِـرٍّ وإيمـان [٨٥]

وعن التزود من الإخوان يقول ناصحاً (من الطويل):

وَأَكْثِـرْ مـن الإخـوان مـا اسْـطَعْتَ إنهـم بطـــونٌ إذا اســـتنجدتهم وظُهُـــورُ
ولـــيس كثيـــراً ألـــفُ خِـــلٍّ لعاقـــلٍ وإنَّ عـــدوّاً واحـــداً لكثيـــرُ [٨٦]

فالصديق الحق للمرء ردء في الشدة والرخاء ، وهو عون لصديقه على مكاره الأحداث ، وإلا فالحذر من الصديق الزائف من أمارات الفطنة ، ينصح الشافعى بذلك حين يقول (من الكامل) :

ودع الـــذين إذا أتـــوك تنســـكوا وإذا خلـــوا فهـــم ذئـــاب حقـــاف [٨٧]

وعن معاناة الغريب المترحل يقول الشافعى (من الكامل) :

إن الغريـــب لـــه مخافـــة ســـارق وخضـــوع مـــديون وذلـــة وامـــق
فـــإذا تـــذكر أهلـــه وبـــلاده ففـــؤاده كجنـــاح طيـــر خـــافق [٨٨]

وعن المسارعة إلى اهتبال الفرصة المواتية للعمل ، يقول (من الوافر) :

إذا هبَّـــتْ رياحُـــك فاغتنِمْهـــا فعُقْبـــى كـــلِّ خافقـــةٍ ســـكونُ
ولا تغفـــلْ عـــن الإحســـانِ فيهـــا فمـــا تـــدري السكونُ متـــى يكـــونُ [٨٩]

تقنيات التعبير الفني في شعر الحكمة والإبلاغية للإمام الشافعي :

لقد صاغ الشافعي من تجاربه الحية أشعاراً فيها الحكمة صافية الينبوع ، راقية المضمون ، وفيها إبلاغية هى بالنظر إلى المضمون ترقى إلى أعلى مراتب الأدب الرسالي فما القيمة الفنية لتلك الأشعار ؟

وابتداء فقد اجتمع على الشافعي للنيل من قيمة أشعاره أمران ، أولهما ؛ كونه فقيهاً عالماً ، فالثابت أن الشافعي قد انحاز إلى الفقه والحديث فصرف لهما جل همه في أخريات حياته ، على أنه لم يهمل الشعر إهمالاً تاماً ، وإن دلنا بعض شعره على أنه لم يُعر الشعر عظيم عنايته بحيث يصرف همته فيكون شغله الشاغل ، فذلك مما يزرى بالعلماء كما يقول :

فلـــولا الشـــعرُ بالعلمـــاءِ يُـــزْرِى لكنـــتُ اليـــومَ أشـــعرُ مـــن لبيـــدِ
وأَشْـجَعَ فـي الـوغي مـن كـلِّ ليـثٍ وآل مهلَّـــبٍ وأبـــى يزيـــد

ولـــولا خشـــيةُ الـــرحمنِ ربِّـــي حشـــرتُ النـــاسَ كلَّهُـــمُ عبيـــدي[٩٠]

ولقد انطلق بعض الدارسين من البيت الأول إلى الزج بسائر شعر الشافعى ضمن أدب الفقهاء أو شعر العلماء .. ومن ثم رموه بالضعف ووسموه بالسذاجة والرتابة ...

لقد حمل النقاد من قديم على شعر العلماء فقال ابن قتيبة تعليقاً على شعر للخليل بن أحمد (وهذا الشعر بين التكلف ردىء الصنعة ، وكذلك أشعار العلماء ، ليس فيها شيء جاء عن إسماح وسهولة) .[٩١] ثاني الأمرين اللذين اجتمعا على الشافعي لينالا من قيمة أشعاره ما يتعلق بالقيمة الفنية لشعر الحكمة ، لا هى بالأساس ضئيلة كما يرى الأستاذ هدارة (رحمه الله) إذ يقول :

(أما القيمة الفنية لشعر الحكمة فهى ضئيلة للغاية لأن مثل هذا الشعر يجنح إلى ناحية عقلية محضة قليلة الحظ من الشعور العاطفي والوجداني ، ولهذا يجهد الإنسان عقله عند قراءته ولا يحس بأى تجاوب عاطفي معه ... وغاية ما يقال في هذا النوع من الشعر أنه ضرب من النظم فيه ناحية تعليمية عظيمة القيمة ولكنه ليس بالشعر الذي يكون الشعور مداره ، والعاطفة أساساً فيه) . [٩٢]

وليس يتسع المجال هنا للتأكيد على أن جلَّ القدامى والمحدثين قد دفعوا عن الشافعى فرية ضعف شعره أو رتابته ، حقاً عُرف الشافعى فقيهاً أكثر منه شاعراً لكن القدامى نبَّهوا إلى مكانته الشعرية ، فرأوه شاعراً غالبه الفقه فانطاع له بجلاف النواسي الفقيه الذي غالبه الشعر فغلبه عن فقهه ، ولله في خلقه شؤون .. أما "القفطى" فيرى شعر الشافعى (أجل من شعر الفقهاء) [٩٣] وقد جاء في" مناقب الشافعى " للبهيقي أن المبرد قال : (رحم الله الشافعى كان من أشعر الناس وأدب الناس ، وأعرفهم بالقراءات) [٩٤] ووصف "اليافعى " شعر الشافعى في " مرآة الجنان " بالكثرة إذ قال: (له من الأشعار ما يخرج عن حيز الانحصار) [٩٥] وجاء في "تهذيب الأسماء واللغات" أن الكرابيسي وصف حلقة الشافعى بالنبل فقال : (ما رأيت مجلساً قط أنبل من مجلس الشافعى ، كان يحضره أهل الحديث وأهل الفقه وأهل الشعر، وكان يأتيه كبار أهل اللغة والشعر فكل يتكلم منه) [٩٦]

وقال عنه يونس بن عبد الأعلى : (كان الشافعى إذا أخذ في العربية قلت هو بهذا أعلم ، وإذا تكلم في الشعر وإنشاده قلت : هو بهذا أعلم ، وإذا تكلم في الفقه قلت : هو بهذا أعلم) [٩٧]

والحق أن في شعر الشافعي ما يؤكد ما ذهب إليه القدامى ، ففي شعره قدرة على استخدام الألفاظ بمهارة تذكرنا بفحول الشعراء ، وتكشف عن كفاءة شعرية وتمكن بائن بأساليب العربية وحسن تصرف في استخدام الضمائر .. يقول :

ومنزلةُ السفيه من الفقيه كمنزلة الفقيه من السفيه

فهذا زاهد في قرب هذا وهذا فيه أزهد منه فيه[٩٨]

وقريب من ذلك قوله بما يقرر وقوفه على دقائق استخدام الفعل وفروق معانيه المختلفة:

واشْكُرْ فضائلَ صُنع الله إذ جُعِلَتْ إليكَ لا لكَ عند الناسِ حاجاتُ [٩٩]

اجتمع للشافعي إذاً علم باللغة والأدب اكتسبه عن رغبة، بعد موهبة فطرية حباه الله إياها، ومن ثم جاء شعره راقياً في قيمته الفنية وفي موضوعه، سامياً في لغته وأسلوبه، بعيداً عن مثالب شعر العلماء الناحي إلى الوعظية والمباشرة، أو الخطابة أو البساطة، فجاء أسلوبه وثيق الصلة بشخصه ... متصلا بعصره، لا ينزل عن أساليب معاصريه وقد يفوقهم أحيانا.

وقد أنصف غير واحد من المحدثين شعر الشافعي، فأقر له الدكتور هدارة ببعد شعره عن رتابة أسلوب العلماء وعن تعقده، فقال:

(لا نجد هذه الظاهرة في شعر الشافعي أو على الأقل في معظمه – بل وجدناه يتناول موضوعات عميقة كالجبر والاختيار بشاعرية مرهفة، وهناك آثار بطبيعة الحال لحقيقة كونه فقيهاً، ولكنها آثار طفيفة جداً، كأن نجد مثلاً مصطلح (القياس) في قوله:

صديقٌ ليس ينفع يوم بأس قريب من عدو في القياس

أو نجد عبارة تقريرية في بعض شعره، وتبقى للشافعي الأديب بعد ذلك كله أصالته ونصاعة بيانه وروعة أسلوبه، وليس أدل على ذلك من اشتباه بعض أشعاره بأشعار الفحول من معاصريه) . [١٠٠]

ويقول عن شاعريته الدكتور مجاهد مصطفى بهجت:

(اجتمعت لشاعريته موهبة وقادة ، ورعاية تعهدته بالصقل والتشذيب ليبلغ القمم العالية شاعرية ، والذرى الشاهقة أدباً وذوقاً)[١٠١] .

وفي شعر الشافعي سهولة غير معيبة ، وفيه صورة شعرية موفقة عميقة .. وفيه من مواطن الموسيقى والبديع ما يستقر في موضعه غير متكلف ولامستجلب .. وقد التزم في

موسيقى شعره روى العربية الذلول " غالبا " (الراء والنون والميم واللام والعين ..) وبحور الشعر الخليلة الأكثر ترديداً بالشعر [١٠٢] (الطويل والبسيط والكامل والوافر) .. وقبل هذا وبعده صدر الشافعي في لغة شعره عن تعابير القرآن ومضامين الحديث وأسلوبه .

وتتمثل أبرز تقنيات التعبير الفني في شعر الشافعي في :

التناص ، والصورة ، والشرط ، والسهولة والوضوح ، والإيقاع السلس .

١. التناص :

بدا حضور الإسلام في شعر الشافعي منطقيا ، فالشافعي يعد (واحداً من الشعراء ذوي النزعة الإسلامية الخالصة) [١٠٣] فلا عجب أن يكون القرآن مصدراً رئيسياً من مصادر تشكيل أسلوبه الشعري ، فقد حفظ القرآن وهو ابن سبع سنين .

وآثار القرآن في شعر الشافعي واضحة ، بحيث جاءت الأبيات المتتابعة صدى لمعاني الآيات القرآنية ، يستلهمها الشافعي لفظا ومعنى .. نجد هذا في قوله جواباً لمن سأله عن القدر يخاطب المولى سبحانه (من المتقارب) :

ما شئتَ كان وإن لم أَشَأْ ... وما شئتُ – إن لم تَشَأْ – لم يكنْ

خلقتَ العبادَ على ما علمتَ ... ففي العلم يجري الفتى والمسِنْ

فمنهم شقيٌّ ومنهم سعيدٌ ... ومنهم قبيحٌ ومنهم حسن

ومنهم غنيٌّ ومنهم فقيرٌ ... وكلٌّ بأعماله مُرْتَهَنْ [١٠٤]

فالبيت الأول استلهام لقوله تعالى (وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيماً حَكِيماً)* الإنسان ٣٠.

والثاني يصدر الشافعي عن قوله سبحانه (أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ) الملك ١٤.

والأخير تضمين لقوله عز من قائل (كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ) الطور ٢١.

وينقل عن القرآن ما أبدعه أسلوبه على غير مثال ، بحيث يرقى التعبير المُتَصَّصُ بشعر الشافعي إلى أجواء رفيعة من السمو اللفظي كما في قوله (من الطويل) :

وأشراف قوم لا ينالون قوتهم ... وقوما لئاما تأكل المن والسلوى [١٠٥]

فهو يصدر هنا عن قوله تعالى (وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى) البقرة ٥٧

ويتفق هنا السياق الشعري مع القرآني فيما يتعلق باللئام .. فما كان اليهود إلا لئاماً حين أنعم الله عليهم فجحدوا آياته ، ونكصوا على أعقابهم ... وتبدو المفارقة بالشعر صارخة ودالة حين يَنْعَمُ .. اللئامُ ، ويحرم الأشراف ويشقى الكرام .

وفي شعر الشافعي استلهام للحديث الشريف .. يقول الشافعى راضياً قانعاً غير عابئ بما يأتي به الغد (من الوافر) :

إذا أصبحتُ عندي قوتُ يومي فخلَّ الهمَّ عنِّي يا سعيدُ

ولا تَخْطُرْ هُمُومُ غدٍ ببالي فإن غداً له رزقٌ جديد [١٠٦]

فهو يستلهم قوله: من أصبح آمناً سربه، معافى في جسده، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا بحذا فيرها) [١٠٧]

وقد يضمن الشافعي شعره أشعار السابقين أو حكم السلف كما في قوله (من البسيط):

ولو تُنازِعُني كَفِّي إلى خُلُقٍ يزري لقلتُ لها : ألقيهِ أو بِيني [١٠٨]

فالشافعي هنا يستلهم قوله النابغة الذبياني:

ولو كفي اليمين بَغَتْكَ خَوْناً لأُفْرِدَتِ اليمينُ من الشمالِ [١٠٩]

ومن تضمينه للقول الحكيم (أترك الشر يتركك) [١١٠] قوله (من الطويل) :

وما ذاك من عُجْبٍ به غيرَ أنني أري أن ترك الشر للشر أقطع [١١١]

(١) التناص :

ولقد بدا حضور بعض بلغاء العرب وفرسانها واضحاً في تشكيل لغة الشافعي وبخاصة من تشابهت ظروفهم وظروفه، أو من تخلقوا بأخلاقه .. (أو من كان للشافعي بشعره خبرة) فآل تشابه السمات والأخلاق أو خبرة الرواية إلى استدعاء الفكرة والأسلوب، ففي شعر الشافعي مواضع تتفق وما ذهب إليه الشنفري الفارس الجاهلي الصعلوك ، ومن المشهور أن الأصمعي قرأ على الشافعي شعر الشنفري أو صححه عليه [١١٢] ففي قول الشافعي رحمه الله (من الطويل):

سأضرب في طول البلاد وعرضها لأطلب مالاً أو أموت غريباً [١١٣]

تشابه لا تخطئه العين مع قول الشنفري (من الطويل) :

أَقِيمُوا بني أُمِّي صدورَ مطيِّكِمْ فإني إلى قومٍ سواكم لأَمْيَلُ

فقد حُمَّتْ الحاجاتُ والليلُ مُقْمِرٌ وشُدَّتْ لَطِيَّاتٍ مطايا وأرحُلُ
وفي الأرضِ منأىً للكريم عن الأذى وفيها لمن خاف القِلَى مُتَعَزَّلُ (١١٤)

وقد توافق شعر الشافعي كثيرا مع حكم الإمام على τ ، فكلاهما يصدر عن وعي إيماني بحقائق الحياة ، يقول الشافعي (من الكامل) :

المرءُ يحظَى ثم يعلو ذكرُهُ حتى يُزَيَّنَ بالذي لم يفعلِ
وترى الغَنِيَّ إذا تكاملَ مَالُهُ يُخْشَى ويُنْحَلُ كلَّ ما لم يَعْمَلِ (١١٥)

وهنا نلمس تشابهاً يكاد يؤول إلى تطابق دلالي مع قول الإمام على بن أبي طالب τ :

(إذا أقبلت الدنيا على أحد أعارته محاسن غيره وإذا أدبرت عنه سلبته محاسن نفسه) (١١٦)

(٢) الصورة :

الصورة والخيال يقعان من الشعر في لبه ، فهما من أهم مقوماته الرئيسية ، بدونهما يسقط الشعر إلى أدنى مهاد النثر .. وتقاس مهارة الشاعر بمدى قدراته التخيلية في إبداع الصورة ، وربما كان التمايز بين الشعراء كامناً في خصوصيات إنتاج الصورة ، وأساليبهم التصويرية .

أما أهم قوالب الصورة في شعر الشافعي فالتشبيه المتفق مع رسالية شعره النازعة إلى الوضوح والإبلاغ .. ومن ذلك قوله يشبه الدنيا بالسراب (من الطويل) :

ومن يذقِ الدنيا فإني طَعِمْتُها وسِيق إلينا عذبُها وعذابُها
فلم أرَهَا إلا غروراً وباطلاً كما لاح في ظهرِ الفلاة سرابها (١١٧)

ومنه قوله يشبه حال الغريب تذكر أهله وبلاده بخفقان جناح الطائر (من الكامل) :

فإذا تذكَّرَ أهلَه وبلادَه ففؤاده كجناح طيرٍ خافق (١١٨)

والتشبيه هنا حضر ركناه مما يقترب بالصورة من الإبلاغية مبتعداً عن الضبابية و التهويم: و يشبه حاله مع السفيه يخاطبه بالقبح فيزداد حلما بحال العود يزيده الإحراق طيبا فيقول (من الوافر) :

يخاطبني السفيهُ بكل قبحٍ فأكره أن أكون له مُجِيبا
يزيد سفاهةً فأزيدُ حِلماً كعُودٍ زاده الإحراقُ طِيبا (١١٩)

ويكثر أن يجيء التشبيه في شعر الشافعي تمثيليا ، فيقوم المشبه به مقام الحجة والدليل على إمكانية المشبه ومصداقيته ؛ بحيث تنزع الصورة إلى الوضوح قرين الإبلاغ ، ومنه يشبه حال الحجيج يفيضون إلى منى بالتطام الفرات فيقول (من الكامل) :

يا راكبا قف بالمحصب من منى ... واهتف تباعد خفيها والناهض

سحرا إذا فاض الحجيج إلى منى ... فيضا كملتطم الفرات الفائض (١٢٠)

ومنه تشبيه الشاعر الفائق بالثعبان في قدره كليهما على اللدغ والإصابة، يقول في قالب التشبيه المؤكد لتأكيد الادعاء بأن المشبه هو المشبه به ذاته (من الكامل) :

والشَّاعرُ المِنْطِيق أسودُ سَالخٌ ... والشعر منه لعابُه ومُجَاجُه (١٢١)

وحذف الأداة هنا جعل من ركني التشبيه مسنداً إليه ومسنداً، وعرا اللحمة بين الأخيرين أوثق وآكد منها بين المشبه والمشبه به، لأنها في الجملة الاسمية تقوم على الإخبار، وفي قالب التشبيه تقوم على الإدعاء ... وقد عزز التجاور من هذا التلاحم وقوّاه ...

وقد أسهمت المقابلة في شعر الشافعي في ترسيم الصورة ، حين استثمر قدرات القالب على التجسيد وإبراز المفارقة كما في قوله (من الكامل) :

رَعَتِ النسورُ بقوةٍ جيفَ الفَلا ... ورعي الذبابُ الشَّهْدَ وَهْو ضعيف (١٢٢)

فإنه لمن دواعي العجب أن ترعى النسور .. على قوتها وعزتها. الجيف، وأن يهنأ الذباب وهو الضعيف بالشهد. والصورة تكشف عن خبيئة نفسية لذات الشافعي المندهشة والمتألمة لما يلقاه الكرام من ضيق .. وقلة زاد!

وينبني بعض شعر الشافعي أسلوبياً على المقابلة بالمقام الأول، كما في قوله (من البسيط):

يا من يُعَانقُ دنيا لا بَقَاءَ لها ... يُمْسي ويصبح في دنياه سَفَّارا

هَلا تركتَ لذي الدنيا معانقةً ... حتى تعانق في الفردوس أبكارا

إن كنتَ تَبْغِي جنانَ الخُلْدِ تسكنها ... فينبغي لك ألا تأمنَ النَّارا(١٢٣)

نعم سهَّل من مهمة الشافعي في استثمار قالب المقابلة كون الحديث عن الدنيا والآخرة، والتقابل بينهما حقيقي مطلق .. لكن العبقرية الشعرية هي ما أبرز هذا التقابل بما يحبب إلى طالبي الفلاح وراغبي النجاح ألا يركنوا إلى الدنيا إن كانوا حقاً من طلاب الآخرة .. ففي الصدر

الأول تبدو للدنيوي خيبة مسعاه محققة .. واضحة من طريق التقابل بين المفعول " دنيا " الموصوف بـ " لا بقاء لها " وبين الفعل " يعانق " فالعناق لا يكون " إلا للحبيب العائد بعد طول غياب أو فقد، أما هنا فالعناق ليس إلا لزائل عما قليل سيفارقك إلى الأبد .. ! ولذا فالمقابلة هنا فاضحة لخيبة المسعى وضلال المذهب، يدعم هذا الفضح مقابلة العجز (يمسي ويصبح) مع صيغة المبالغة (سفَّارا) بالضرب، إذ تبرزان مجتهداً نشطاً لا يكل، يبغي عرضاً زائلاً لا بقاء له.

وبالبيت الثاني مقابلة يتقاسم الشطران طرفيها (جنان الخلد، النارا) ومن البَيِّنِ أن الصدر ذا التركيب الإضافي يُرَغِّب إلى المؤمن سعيه للجنان بصيغة الجمع لا الإفراد كما بالعجز مع " النارا " ، وذلك مما يدعم هو الآخر المفارقة بين الدارين .. ومع إيماني أن النار دار خلود هي الأخرى في الآخرة بما يعنى أن الوصف بالخلود، وإن لم يذكر مع النار فهو وارد بحقها أيضاً، فإن إفراد الجنان بالوصف دون النار مما يعمق الفجوة التفارقية " على الأقل من الوجهة الشكلية " بين الدارين .. لتَحْسُن في عين المتلقي المبلَّغ صورةُ الجنان. وبالصدر تأكيد على طلب الجنان بالفعلين (تبغي، تطلبها) وربما أغنى أحدهما دلالياً عن الآخر على المستوى السطحي ..لكن الثنائية هنا مما يرجح كمياً كفة الجنان عن النار .

وبين الفعلين (تبغى، وينبغي) من التجانس الصوتي ما يكشف عن استثمار الشافعي لبنية (التباين والتشاكل) على نحو أسهم في تماسك النص ، إذ يبني البيتان على بنية التماثل والتخالف ... ومن مظاهر الأخير أن يكون طلب الجنان من طريق الإثبات وطلب النار من طريق النفي ، والبنيتان (التماثل والتخالف) تؤولان إلى تماثل عميق.

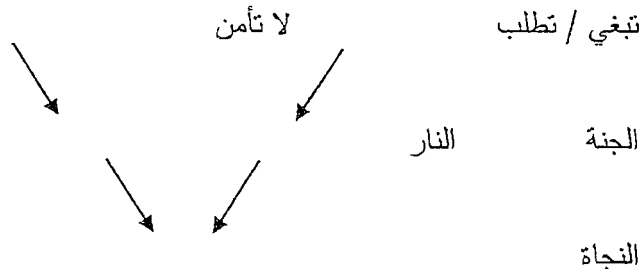

ومن جميل مقابلاته قوله عن الدنيا (من الطويل) :

ولـــيس ببـــاقٍ بؤسُـــها و نعيمُهـــا إذا كـــرَّ ليـــلٌ ثَـــمَّ كـــرَّ نهـــارُ (١٢٤)

ومن جديد يقرر العجز قيام شعر الشافعي أحيانا على بنية التشاكل (تكرير : كَرَّ) وبنية التباين (مقابلة : ليل ، نهار) .. أما بنية المقابلة في الصدر فتؤول إلى المساواة ؛ إذ

يستوي في الزوال : بؤس ونعيم .. في حين تؤول بنية التقابل بالعجز إلى التحول وعدم الثبات ، فيتفق المآلان إلي غاية واحدة هي في البنية العميقة (ليس بباقٍ ..) وكفى ، والمقابلة هنا سيطرت بدوالها على بنية البيت لتحقق مقصداً دفعت به إلى مطلع البيت بحيث تؤول إليه على مستوى الدلالة . ومن نماذجها أيضا قوله (من الطويل) :

سأضربُ في الآفاقِ شرقاً ومغرباً ... وأكسب مالاً أو أموتَ غَرِيبا
لئن تَلِفْتْ نفسي فللهِ درُّها ... وإن سلمتْ كان الرجوعُ قريبا [١٢٥]

فالمقابلة بين (شرقاً وغرباً) النازعة إلى شمول الاتجاه تشير إلى همة الشافعي الواردة بطالع الصدر : (سأضرب في الآفاق) . أما المقابلة بين (تلفت وسلمت) فيدعم أثرها الدلالي والصوتي تناظر الموقع وتماثل المبني وهي تنزع إلى المساواة ، وكأن المتضادين مترادفان : وهو الأمر الذي يكشف عن نفس الشافعي السوية التي تؤمن بالقضاء .. وتستوى عندها السلامة والهلاك ، أو أن يعيش ثرياً أو يموت غريباً مهيناً . ولئن بدا في العجز الأول فارق جلى بين الحياة والموت ، يبدو معه الشافعي منحازاً إلى الحياة فإن مقابلة البيت الثاني تنال من هذا الفارق ... فيضيق ، حينما يكون جواب تلف النفس : لله درها ، ويكون جواب السلامة هو : الرجوع قريبا ... فكأن الشافعي هنا يحبذ أن تتلف نفسه في سعيها للمجد ..

(٣) الشرط :

وقد راوح الشافعي في شعره بين الأسلوبين الخبري والإنشائي .. وأسلوب الشرط .. ويحتل الأخير مرتبة متميزة في تشكيل لغة شعر الشافعي وخاصة في حكمه .. وقد بدا الشرط أحياناً دليلاً على أن الشافعي عاش يتوق إلى مجتمع فاضل .. وقد يكون الشرط سبيل الشافعي إلى إقرار الحقيقة تأسيساً على كون الأسلوب الشرطي يقوم على التراتب ، وذلك كما في قوله (من الطويل) :

تَصَبَّرْ على مرِّ الجفا من معلِّمٍ ... فإن رُسُوبَ العلم في نَفَرَاتِهِ
ومن لم يَذُقْ مرَّ التعلُّمِ ساعةً ... تجرَّعَ ذُلَّ الجهلِ طولَ حياتِه
ومن فَاتَهُ التعليمُ وقتَ شبابِهِ ... فكَبِّرْ عليه أربعاً لوفاتِه
حياةُ الفتى والله بالعلمِ والتُّقى ... إذا لم يكونا لا اعتبار لذاتِه [١٢٦]

انبنت أبيات ثلاثة من القطعة على الشرط ، في حين تقاسم الإنشاء والخبر شطري المطلع ، وأداتا الشرط (مَنْ ، إذا) هما الأثيرتان بأسلوب الحكمة والنصيحة ، في الشرط الأول حضٌ على تحمل مرارة التعلم والاصطبار على صعوباته .. وبنية البيت تهون من معاناة التعلم

.. إذ يرى الشافعي التعلم على صعوبته وقت تعاطيه هو الطريق إلى عز الدنيا .. يتأسس هذا المعنى بالاحتكام إلى النسبية أو الكمية التي ينطق بها الشطران ؛ ففي حين لن يكون الصبر على مرارة التعلم إلا (ساعة) فإن تجرع الذل سيدوم(طول الحياة) وفي حين يكون التعلم (تذوقاً) يحكي السرعة وربما الرغبة ، فإن ذل الجهل لن يكون إلا (تجرعاً) يحكي المرارة والصعوبة وشدة الوطء ، وهكذا تتكاتف بنية التقابل بتوابعها السابقة مع بنية الشرط في إطار أعم يتمثل في ابتناء البيت عبر شطرين متفارقين .. متوازنين لإبراز التفارق الهائل بين المتقابلين : (التعلم والجهل) تزييناً للأول وحضاً عليه ، وتهجينا للثاني وإهدارا له .

وفي الشرط الثاني تتكاتف بنية الجناس (فاته ، لوفاته) التي تَلُفُّ البيت من مفتتحه إلى منتهاه مع البنية الشرطية لتزيين طريق العلم والمسارعة إليه في باكر أيام الشباب .

أما الشرط الثالث ، فليس اختلافه عن السابقين لاختلاف الأداة فحسب ، بل في تراتب أركان البنية الشرطية أيضاً ، إذ تقدم على بنية الشرط الواردة بالعجز بعض عناصرها إلى الصدر ، بحيث بدا الفرعي لتقدمه رئيسياً بما أبرز الدلالة المقصودة في إطار خبري بسيط ، شدد على لحمة طرفي الجملة الاسمية اعتراض القسم بينهما .. والشرط هنا وإن بدا غير مسيطر على بنية البيت حين تراجع متطامناً إلى العجز ، متنازلاً لبعض مكوناته عن الصدارة ، فإنه تحمل وحده عبء الصدع بالحقيقة .. الفاجعة .. إذا لم يكونا .. لا اعتبار لذاته.ولضمير الفعل هنا دور في استدعاء العلم والتقي بما أسهم في تماسك الشطرين وإبراز الدالين مجدداً بالعجز .

وقد يُحَمِّل الشافعي بنية الشرط بشرى الداعية لمدعويه ، تيسيراً عليهم ، إذ يحبب إليهم التوبة ، ولا يؤايسهم من رحمة العفو الغفور ، وذلك في قوله (من الكامل) :

إن كنتَ تغدو في الذنوبِ جَلِيدا ... وتخافُ في يوم المعاد وَعِيدا
فلقد أتاك من المهيمنِ عَفْوُه ... وأتاحَ من نعمٍ عليكِ مَزِيدا
لا تَيْأَسَنْ من لُطْفِ ربك في الحَشَا ... في بطن أمك مُضغة وَوَليدا
لو شاء أن تَصْلي جهنَّم خالدًا ... ما كان أَلْهَمَ قلبَكَ التوحيدا (١٢٧)

وبالمقابل ربما امتطى الشافعي صهوة الشرط ليحذر المسلم من مآل وخيم لفعل وبيء كما في قوله (من الطويل) :

إذا كان ذُو القُربى لديك مبعَّداً ... ونالَ الذي يهوى لَدَيْكَ ، بعيدُ
تفرَّقَ عنك الأقربون لشأنهمْ ... وأشفقتَ أن تبقَى وأنت وحيد

وأصبحت بين الحمد والذمّ واقفاً فيا ليت شعري أيَّ ذاك تريد؟ (١٢٨)

(٤) الوضوح :

السهولة والوضوح من أبرز خصائص شعر الشافعي الأسلوبية ، وتتصل هذه السهولة بما يستتبعها من وضوح برسالية شعر الشافعي ، فليس الشعر حرفة لديه ، وليس سبيلا إلى التكسب أو مزاحمة المحترفين من الشعراء ، وإنما هو منشط ذاتي إبداعي يواتيه بين الحين والآخر فيستجيب له .. وما كانت بواعث قول الشعر عند الشافعي إلا ذاتية في حين ، ورسالية في أحيان كثيرة ، والسهولة والوضوح اللتان تقابلاننا في شعره (عنوان بلاغة وليس مظهر ضعف أو تقصير لأنه كان يملك القدرة على الجزالة وكان يمارسها في النثر ، ليجعل شعره أعلق بألسن الناس وأثبت في أذهانهم وأكثر سيرورة على الزمن) (١٢٩)

إن السهولة والوضوح ربما كانا عاملين رئيسين في شيوع شعر الشافعي حتى عصرنا هذا على ألسنة العامة والخطباء والمثقفين .. على سواء .. وربما كان حقاً أن نثر الشافعي فاق في أحايين شعره (١٣٠) إذ لا قيود تعرقل سير الفكرة وعمقها في الأول ، في حين تكبل قوانين الشعر وقيوده أحياناً انطلاق الفكر وعمق الرؤية .. فلا يملك الشاعر إذاك إلا التضحية بسمو الفكرة وعمق الرؤية لحساب قوانين الوزن والقافية .. وربما ذَكَّرَنَا هذا بالرافعي في العصر الحديث " وكلاهما شامي الأصل " رسالي حين بدا نثره أكثر شعرية من نظمه .

والسهولة تبدو أحيانا قرين الرقي وسمو اللغة على نحو ما نرى في قوله (من البسيط) :

يا من يعانق دنيا لا بقاء لها يمسي ويصبح في دنياه سفارا
هلا تركت لذى الدنيا معانقة حتى تعانق في الفردوس أبكارا
إن كنت تبغي جنان الخلد تسكنها فينبغي لك ألا تأمن النارا(١٣١)

فالبساطة والسهولة هنا تبرزان من خلال وضوح المعنى بحيث يفهمه الجميع على نحو إن لم يكن متطابقاً فإنه يؤول إلى التطابق .. ومن مظاهر تلك السهولة تحقق معيارية التركيب فلا تقديم ولا تأخير ، بل يحتفظ كل دال بموقعه النحوي المعياري .. دون تجاوز أو شذوذ .. ومن اللافت كما يرى الدكتور عمر الطباع (أن إلمام الشافعي بغريب الشعر لم يشده إلى الغموض والتعقيد اللفظي ، بل ربما كان من دواعي حرصه على المعاني القريبة بأسهل سبل الأداة وأكثرها ملاءمة للذوق والسماع) (١٣٢) وما ذلك فيما أرى إلا استجابة لنداء الرسالية .

ومن دلائل السهولة في شعر الشافعي قوله (من مجزوء البسيط) :

حسبي بعلمي إنْ نَفَعْ ما الذلُّ إلا في الطَمَعْ

مـــــن راقـــــب الله رَجَـــــعْ مـــن ســـوء مـــا كـــان صَـــنَعْ
مـــا طـــار طَيْـــرٌ وارتفـــعْ إلا كمـــا طـــار وَقَـــعْ (١٣٣)

فالحشو هنا معدوم – وجوده مُضلِّلٌ مُشتِّتٌ في أكثر الأحيان – فقد اكتفى الشافعي هنا بأركان الجملة الرئيسية ، فجاءت الجمل متوسطة الطول يسهل على المتلقي الوقوف على دلالتها ، وينبني الأسلوب على نحو معيارى .. تتقدم فيه الجملة إلى الأمام من الفعل إلى الفاعل ، ومن المبتدأ إلى الخبر .. دون ارتداد أو تردد أو تداخل بحيث بدا هنا أن انتظام اللغة ظل لانتظام الذات واستواء الروح .. وربما كانت السهولة هنا مظهراً لواقع تَمَثَّلَ في أن الشافعي لم يكن ممن يعاودون النظر في أشعارهم بالتثقيف والتنقيح ، والتعديل والتغيير ، على نحو ما يفعل الحوليون أو المحترقون .. والمتكسبون ، فما هي إلا الفكرة تطرق الذهن فتصوغها الملكة الإبداعية الفطرية ، ويطلقها اللسان في حينها .. وربما أهملها فلم يعاودها فيما بعد.

ومثل ذلك قوله (من مجزوء الكامل):

مـــن جـــا إليـــك فـــرُحْ إليـــ ـــه ، ومـــن تـــأنَّ فَصُـــدَّ عنـــه
مـــن ظـــنَّ أنـــك لعنـــة دونَـــه فاصـــرفْ هـــواه إذاً وهُنْـــهُ
وارجـــعْ إلـــى ملـــكِ الملـــو كِ فكـــلُّ مـــا يأتيـــك منـــه(١٣٤)

ومنه قوله (من الخفيف) :

سَـــهِرَتْ أعـــينٌ ونامـــت عيـــونُ فـــي أمـــور تكـــون أو لا تكـــون
فـادرأ الهـمَّ مـا اسـتطعت عـن النَّفْـ ـــس فحملانـــك الهمـــوم جنـــون
إن ربّـــاً كفـــاكَ بـــالأمس مـــا كـــا ن ســيكفيك فـــي غـــدٍ مـــا يكـــون(١٣٥)

إن معيارية بناء الجملة ، وتوسط طولها ، وتجنب الحشو والحوشي ، مع اقتداره عليهما ، فضلاً عن تمثل رسالية الشعر دائما لدي الشافعي وعدم خفوت صوتها في روحه – كل ذلك أسهم في بساطة الأسلوب وسهولة التعبير على نحو أسهم في شيوع شعر الشافعي جيلاً في إثر جيل ربما دون حاجة إلى تدوين .

وقد ينحو الشافعي إلى السهولة عبر التكرير بحيث تتضح الفكرة وضوحا لا مزيد عليه، فهو يدعو إلى الوفاء بالحق فيقول (من السريع):

فِ بـــالحقِّ لـــذي الحـــقِّ إذا حـــقَّ لـــهُ الحـــقُّ
فـــلا خيـــرَ بمـــن يُنكـــ ـــر ذا حـــقٍ لـــه الحـــقُّ(١٣٦)

(٥) الإيقاع السلس :

والشافعي لم يهمل حق الشعر إيقاعاً وموسيقى ، ففي شعره من مظاهر الموسيقى الإبداعية ؛ الجناس والتكرار والتقسيم .

ومن الجناس العفوي غير المستكره قوله (من الطويل) :

رأيتك تكويني بميسَمِ منَّةٍ كأنك كنتَ الأصلَ في يوم تكْويني

فدعني مِنَ المَنِّ الوخيم فلقمَةٌ من العيش تكفيني إلى يوم تكفيني (١٣٧)

فالتجانس يلف البيتين، والضرب محطُّ القرار دائماً، ويتسع مدى التجانس في البيت الأول فيشدُّ الجناسُ كاملَ البيت في حركة تقدمية من الصدر إلى العجز، ثم إرتدادية بالعكس. يزيد من توترها الاختلاف الدلالي البيِّن بين الدالين.

تكويني

تماثل صوتي ← ← تخالف دلالي

وهو عين ما نلقاه مع الجناس الثاني مع فارق المدى؛ إذ يتمركز الجناس هنا بالعجز، محدثاً ما يشبه الربكة اللفظية المؤثرة، ومن ثم الفاعلة في الإبلاغ .. وتجانس الضربين هنا (تكويني، تكفيني) يسهم في تماسك البيتين رأسياً بعد أن أسهم كلاهما مع صنوه في تماسك الشطرين أفقياً .. وقد بدت لأجل ذلك دوال الجناس هي القارَّة في بنية النص صوتياً ودلالياً على سواء.

ومن الجناس أيضا قوله (من الطويل) :

سلامٌ على الدنيا إذا لم يَكُنْ بها صديقٌ صدوقٌ صادقُ الوعدِ مُنْصِفَا (١٣٨)

والشافعي هنا ينهج نهج الأعشى في بيته المشهور:

وقد غدوت إلى الحانوت يتبعني شاومُ شل شلول شلشل شول

إذ تتمركز في كلا البيتين طفرة صوتية متوهجة بالعجز، تكشف عن مدلول شديد الخصوصية في كلٍّ. على أن الجذر اللغوي الأساس الذي انبنت عليه الطفرة بأسرها فيما بعد يختلف هنا عنه هناك، إذ هو هنا الصديق؛ ودلالته واضحة، ولذا فالتقدم إلى الأمام اعتماداً على الجذر اللغوي لا يزيده إلا وضوحاً .. على عكس " شاو " بالنموذج الجاهلي .. إذ ابتدأت صعوبته من أول وهلة ثم ازدادت ضبابيته آنا فآنا .. ويبدو الآن جلياً أثر تموضع مظان

الجناس أركانه في تعزيز أثره، حينما يتمركز الجناس بمواقع متناظرة أو قارة؛ ذات خصوصية ومكانية .. ومن تناظر موقع المتجانسين قول الشافعي (من الكامل):

الجـد يـدني كـل أمـر شاسـع والجـد يفـتح كـل بـاب مغلـق (١٣٩)

ومن تناظر الموقع رأسياً قول الشافعي (من الطويل) :

وكـلُّ امـرئٍ لاقٍ مـن المـوتِ سـكرةً لهـا سـاعةٌ فيهـا يـذلُّ ويخضَـعُ
فللـهِ فانصـحْ يـا ابـنَ آدمَ إنَّـهُ متـى مـا تُخَادِعـهُ فنفسَـكَ تخـدع (١٤٠)

وباستثناء تخالف حرفي المضارعة، يتجانس الدالان على نحو يسهم في تماسك البيتين ، وتناغم النهايات .

أما المواضع القارة فكما في مثال الصديق السالف . وقد يجتمع المكان القار والتناظر معاً ، حينما يتجانس الضربان المتواليان كما في قول الشافعي (من المنسرح) :

والمـرءُ إن كـان عـاقلاً ورعـاً يشـغلُهُ عـن عيـوبهم وَرَعُـهْ
كمـا العليـلُ السـقيمُ يشـغلُهُ عـن وجـعِ النـاس كلِّهـم وَجَعُـهْ (١٤١)

ولشعر الشافعي من التكرار نصيب .. فالتكرار من ألصق قوالب العربية صلة بالإيقاع .. وله بالموسيقى صلة حميمة، والتكرار يسهل على المتلقي الاهتداء لمضمون الرسالة وربما حفظها والتغني بها .. ومن التكرار قول الشافعي عن الحكام الظالمين ومآلهم الوخيم (من البسيط) :

تَحَكَّمُـوا فاسـتطالوا فـي تَحَكُّمِهِـمْ عمَّـا قليـلٍ كـأن الحكـم لـم يَكُـنِ
لـو أنصـفُوا أنصـفوا لكـن بَغَـوا فبغـى علـيهم الـدهرُ بـالأحزان والمحـن
فأصـبحوا ولسـان الحـال يَنْشُـدُهم هـذا بـذاك ولا عتـبٌ علـى الـزمن(١٤٢)

وقريب منه قوله :

مـا تَـمَّ حلـمٌ ولا علـم بـلا أدب ولا تجاهـل فـي قـوم حليمـان
ومـا التَّجَاهُـلُ إلا ثـوبُ ذي دَنَـسٍ ولـيس يلبسـه إلا سـفيهان (١٤٣)

وبالبيت الأول تقسيم ثلاثي؛ إذ ينقسم كل شطر انقساماً ثلاثي الوقفات يسهل من عمل المتلقي (ما تم حلم / ولا علم / بلا أدب)، (ولا تجاهل / في قوم / حليمان)، وفي انسجام الوقف على التنوين في أربع مرات من الستة إبراز لتنغيم التنوين اقترب من نون الروى فأسهم ذلك كله في غنائية البيت، وما ذاك إلا لقناعة الشافعي بمضمون رسالة البيت قناعة وجدانية عقلية بدا

انتقالها للآخر سلساً ميسوراً أما البيت الثاني، فالتقسيم به ثنائي: وما التجاهل إلا / ثوب ذي دنس وليس يلبسه / إلا سفيهان يقابل تنوين (دنس) نون الروى، وربما كان تضعيف آلة الاستثناء واقترابها في المرتين من موضع الوصول أو الانطلاق مما أسهم في تناغم الشطرين كذلك.

ومن التقسيم الذي يسهم في توازن البيت، فيطرب المتلقي، ويقبل على الرسالة البلاغية قول الشافعي (من المنسرح):

المـــرءُ فـــي كَوْرَتِـــهِ ضـــائع واللَّيْـــثُ فـــي غَيْضَـــتِهِ جـــائعُ (١٤٤)

فشطرا البيت يتوازنان لفظاً بلفظ؛ يبدأ كلاهما باسم معرفة هو المسند إليه ثم "جار ومجرور " الجار دائماً هو (في) والمجرور دائما نكرة مضافة لضمير يعود على المعرفة المتقدمة، ثم مشتق من نوع اسم الفاعل يأتي " مسنداً " يتم به المعنى، وينتهي بالصوت ذاته. والنهاية الصوتية المتفقة هنا تدعم اتفاق الوزن الصرفي إذ بدت النهايات تامة التوافق .. كما كانت الأنماط التعبيرية متوافقة، وهذا الانسجام لا يكونَ – فيما أرى – إلا دليلاً على قناعة المبدع بما يقول، وهي القناعة التي تتسرب إلى المتلقي المبلِّغ دعماً للرسالة بفعل التوازن والتقسيم.

وقريب من ذلك قوله (من الكامل):

كيـف الوصـولُ إلـى سـعادَ ودونَهـا قُلـــلُ الجبـــالِ ودونهـــن هُتـــوفُ
الرِّجْـــلُ حافيـــةٌ ومـــالي مركَـــبٌ والكـــفُّ صِـــفْرٌ والطريـــق مَخُـــوفُ (١٤٥)

فالبيت الثاني يستقل شطراه، ويتقاسم كليهما في كل مرة تركيبان اسميان، المسند إليه دائما معرفة " بأل التعريف ثلاث مرات وبالإضافة مرة واحدة " والمسند إليه نكرة. وعلى هذا النحو الذي ينقسم فيه الشطران كلٌّ على قسمين متوازيين جرى إيقاع كثير من شعر لشافعي كما في قوله (من المتقارب) :

مـــا شـــئتَ كـــان وإن لـــم أشـــأ ومـا شـئتُ – إن لـم تشـأ – لـم يكـن
خلقـــت العبـــاد علـــى مـــا علمـــت ففـــي العلـــم يجـــري الفتـــى والمســـن
فمـــنهم شـــقي ومـــنهم ســـعيد ومـــنهم قبـــيح ومـــنهم حســـن
ومـــنهم غنـــي ومـــنهم فقيـــر وكـــلٌّ بأعمالـــه مـــرتهن
علـــى ذَا مَنَنْـــتَ وهـــذا خـــذلتَ وذاك أعنـــت وذا لـــم تُعِـــنْ (١٤٦)

أما أكثر الأبيات توازناً فالثالث، وقد أسعف على توازنه تكرار الجار والمجرور (منهم) على نحو منتظم، أما البيتان الأولان فبحشو عجزيهما ما ينال من انتظام التوازن الناتج عن التقسيم، بحيث بدت نغمة الإيقاع مجروحة، ليست على استقامة الصدرين، وبدا وكأن التقسيم خماسي لا رباعي. وينسجم التوازن على نحو أفضل في قوله (من الوافر) :

أزلتُ مطامعي وأرحتُ نفسي ... لأن النفسَ ما طمعت تَهُونُ
وأحييتُ الرجاءَ وكان مَيْتاً ... وفي إحيائه عرضي مَصُونُ
إذا طمعٌ ألمَّ بنفسِ عبدٍ ... علته مَذَلَّةٌ وعلاه هُونُ[١٤٧]

الخاتمة:

وبعد .. فقد كان الشعر هو أول ما طلبه الشافعي على مدرج العلم، ولكنه وبالنظر الانجاز العلمي المتحقق لابد أن يكون الشافعي تحول عن الشعر شيئا فشيئا إلى العلم والفقه لأسباب عدة، منها العام والشخصي، تتخلص إجمالاً في رغبته في تلقي الفقه والحديث وخدمة الإسلام، ومنها نظرته للشعر المزري بالعلماء، وربما عدم طواعيته له في كل آن، وعلو شأن المجددين من الشعراء أمثال النواسي بما صعَّب من مهمة أن يزاحمهم أمثاله في هذا الميدان.

وللشافعي شعر رسالي يصدر عن موهبة فطرية أصلية دعمها اكتساب للغة من مظانها، ودراية بالآداب القديمة ورواية لشعر هذيل والشنفري .. وحفظ الكثير من شعر الجاهلية.

وقد احتفظ الشافعي لشعره بمهمتي الحكمة والإبلاغ، فجاء شعره رسالياً يلهج بالحكمة ويؤدي واجب البلاغ فتعرفنا إلى ذاته وعصره.

وقد دعم الحكمةَ عند الشافعي (نثراً وشعراً) عقلٌ جبارٌ، وفطرة سوية، وفراسة فطرية؛ وتنقل وارتحال، وخبرة بالحياة والأحياء، وغلبة المقطعات والنتف على شعره، وتتأطر حلم الشافعي، عبر ثلاثة محاور هي: الزهد في الدنيا والناس والإقبال على ما ينفع، وطلب العلم، والتقوى وكرامة النفس.

ولأن هذه المحاور إنسانية مطلقة لا ترتبط بزمان ولا يحدها مكان، فقد تمتعت حكمة الإمام بصلاحية البقاء واتسمت بالمعاصرة والأصالة معاً على النحو الذي لم تفقد معه بريقها في عصرنا وظلت مقبولة يستند إليها الخطباء والمثقفون والعامة في التدليل على صحة أفكارهم وصواب رؤيتهم.

ولقد عرفنا الشافعي ببعض حوادث حياته من خلال شعره، عبر إبلاغيه الذات فأوقفنا على ما يحب ويكره، وعلى المواطن التي نزل بها، والمصاعب التي نزلت به، والمعاناة التي ألمت به، وفقره الناتج عن اختلال الموازين، وإهمال حق الأدب والأديب .. وفي شعره حديث عميق عن الصداقة والواجب .

وفي إبلاغيه الآخر بدا الشافعي واحداً من رواد الإصلاح، الناصحين لأمتهم .. الثائرين بوعي على الأوضاع المقلوبة، والأحوال المغلوطة، ومن خلال شعر الحكمة والإبلاغية عند الشافعي بدا أن الإمام يلتزم الوسطية في إبداعه؛ إذ جعل شعره بين الذات والآخر مقسوماً قسمة عادلة؛ فالحكمة ذاتية التجربة والتعبير لا تقصد إلا إلى تثقيف الآخر وحمايته والإبلاغية

(في ذاتيتها وغيريتها) تسعى إلى التعريف ونقل الخبرات .. ومن ثم فالتوازن وإن بدا في حين مظهراً من مظاهر الإيقاع، فهو سمة بالأساس من سمات الذات المبدعة في أدبها الرسالي .

وقد حاز شعر الشافعي نصيباً واضحاً من خصائص الأسلوب الراقي المتفقة مع رسالية الشعر وحكمته و إبلاغيته .. فصدر شعره عن أساليب القرآن والحديث وحكم السابقين ، ونزع إلى السهولة والوضوح ، وجاءت صوره شفافة لاضبابية ، مُفْهمة ومُعْلمة قبل أن تكون مثيرة أو مهومة ، وفي شعره من ثبات التصور الوجودي والاقتناع المطلق بالفكرة ما يتفق وانسجام الإيقاع عبر مسارب الجناس والتكرار والتوازن . وقد تراوحت أساليبه ما بين الخبر والإنشاء .. والشرط.

رحمه الله كفاء ما قدم للعربية والإسلام.

الإحالات والهوامش

١) تراجع تلك الدراسة في :

دراسات في الشعر العربي " تحليل لظواهر أدبية وشعراء " دكتور محمد مصطفى هدارة، دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية ١٩٨٢، الجزء الثاني، صفحة ٥٤ وما بعدها.

٢) يراجع في ذلك:

ديوان الشافعي؛ تحقيق ودراسة: الدكتور مجاهد مصطفى بهجت، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى ١٩٩٩م.

وتقع الدراسة في اثنين وثلاثين صفحة (٤٢.١٠) وبها عرض لحياته (اسمه ونسبه، ونشأته، وأخلاقه وعلمه، وفصاحته ولغته، وثقافته الأدبية، وإنشاده الشعر ونقده، ومنزلته الشعرية) وعرض لسياق حياته خلال شعره، والعبث والانتحال في شعره، وعرض لديوانه حديثاً، ولمصادر شعره، وأثبت ملحقاً يحصى شعر الشافعي خلال القرون وحجم مرويات كل قرن، ثم عرض لأغراض شعره، ولخصائص شعره " شاعريته، لغته وأسلوبه، الفنون البلاغية في شعره، التضمين والاقتباس في شعره، غلبة المقطعات عليه، أوزانه وقوافيه ".

٣) في تقديم الدكتور مجاهد بهجت لديوان الشافعي ما يؤكد أمانة المحقق ونزاهته العلمية ودقته ... يقول: (كان لقائي الأول بالإمام الشافعي قبل سنة ١٩٧٦ وجاء اللقاء الآخر قبل سنة ١٩٨٦ وبعد عشر سنوات أعدت النظر فيما نشرته عنه، ورأيت إخراج الديوان لمحبي الإمام الشافعي وشداة الأدب وقراء العربية كافة.

وكانت النشرة الأولى بعنوان" شعر الشافعي " ... وبعد مرور هذه الحقبة الزمنية الطويلة وعدم الوقوف على مخطوطة الديوان، أطلق على هذه الطبعة تسمية الديوان مجازاً، لأنها أكثر ما جمع له، وأوسع ما نسب له.

وحرصت في هذه النشرة على أن تكون أكثر اختصاراً، وأصغر جرماً مما كانت في الطبعة الأولى، وأوثق وأثبت في صحة نسبة الأشعار إليه، فضلاً عن مراجعة النصوص وزيادة توثيقها من المصادر) ديوان الشافعي (بهجت) ٣.

٤) ديوان الإمام الشافعي؛ شرحه وضبط نصوصه: الدكتور عمر فاروق الطباع، دار الأرقم للطباعة والنشر بيروت، ١٩٩٥.

٥) معجم الأدباء " إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب " لياقوت الحموي، تحقيق الدكتور إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٣م، الجزء السادس، صفحة ٢٤١١.

٦) تذكرة الحُفَّاظ للذهبي " ت ٧٤٨هـ . ١٣٤٨م " دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة السابعة، د. ت، الجزء الأول، صفحة ٣٦١، ٣٦٢.

٧) معجم الأدباء ٦ / ٢٣٩٤.

٨) التمرد على الأدب " دراسة في تجربة سيد قطب " دكتور على شلش، دار الشروق، بيروت والقاهرة، الطبعة الأولى ١٩٩٤، صفحة ٨.

٩) التمرد على الأدب ١٢.

١٠) خلافاً لما يراه الأستاذ عبد الغني الدقر؛ إذ يقول عن الشافعي:

(لو شاء لسابق المجلين من شعراء عصره)، نعم تحصلت للشافعي من مقومات الشعر الفطرية المكتسبة ما يؤهله ليكون شاعراً مجيداً .. لكن فطرته " ولا أقول موهبته " لم تسعفه .. فانصرف إلى الفقه.

يراجع في قول الأستاذ الدقر: مؤلفه في سلسلة أعلام المسلمين رقم (٢) بعنوان: الإمام الشافعي "فقيه السنة الأكبر" دار القلم دمشق، الطبعة السادسة ١٤١٧هـ صفحة ٢٨٣.

١١) توالى التأسيس لمعالي محمد بن إدريس، للحافظ ابن حجر العسقلاني " ٧٧٣ – ٨٥٢هـ " تحقيق: أبو الفداء عبد الله القاضي، دار الكتب العلمية بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ ، صفحة ١٨٥، ١٨٦ .

١٢) وعلى ذلك يمكننا القول: إن التحول لم يكن فجائياً ومطلقاً، إذ توسطت بين طلب الشعر أولاً والاشتغال بالفقه ثانياً مرحلةٌ انتقالية اشتغل فيها الشافعي بالشعر والفقه معاً، قبل أن يهمل الشعر تماماً في أخريات حياته على نحو ما نفهم من قول الحاكم عن الربيع يقول: (سمعت الشافعي يقول: والله الذي لا إله إلا هو لو علمتُ أنَّ شُرْبَ الماء البارد ينقص من مروءتي شيئاً ما شربته، ولو كنت اليوم ممن يقول الشعر لرثيت المروءة) " توالى التأسيس ١٤٤".

١٣) مناقب الإمام الشافعي لفخر الدين الرازي " ت ٦٠٦هـ " تحقيق دكتور أحمد حجازي السقا، مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ ، صفحة ٣١٧ .

١٤) معجم الأدباء ٦ / ٢٤٠٥ ، ٢٤٠٦ .

والقصة ذاتها باختلاف يسير في" حلية الأولياء " تروي عن الربيع بن سليمان أيضاً فيقول: (كنت عند الشافعي إذ جاءه رجل برقعة فقرأها ووقع فيها ومضى الرجل ، فتبعته إلى باب المسجد فقلت : والله لا تفوتني فُتْيا الشافعي ، فأخذت الرقعة من يده ، فوجدت فيها (من الطويل) :

سل العالم المكي هل من تزاور وضمة مشتاق الفؤاد جناح

فإذا قد وقع الشافعي (من الطويل) :

فقلت معاذ الله أن يذهب التقي تلاصق أكباد بهن جراح

قال الربيع: فأنكرت على الشافعي أن يفتي لِحَدَثٍ بمثل هذا، فقلت: يا أبا عبد الله تفتي بمثل هذا شاباً؟ فقال لي: يا أبا محمد هذا رجل هاشمي قد عَرَّس في هذا الشهر . يعني شهر رمضان . وهو حدث السن، فسأل هل عليه جناح أن يقبل ويضم من غير وطء؟ فأفتيته بهذه الفتيا. قال الربيع: فتبعت الشاب فسألته على حاله، فذكر لي أنه مثل ما قال الشافعي، فما رأيت فراسة أحسن منها". يراجع في ذلك: حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للحافظ أبي نعيم الأصفهاني " ت ٤٣٠ هـ " مكتبة الخانجي بالقاهرة، دار الفكر ببيروت ١٩٩٦، الجزء التاسع، صفحة ١٥٠.

١٥) يراجع في ذلك الإمام الشافعي للدقر ٢٦٩ .

١٦) نفسه ٢٧٤ .

١٧) نفسه ٢٧٠ .

١٨) المحمدون من الشعراء للقفطي (ت ٧٦٤هـ) تحقيق: معمري، طبعة دار اليمامة بالرياض، صفحة ٨٠.

١٩) معجم الأدباء ٦ / ٢٤٠٣ .

٢٠) أصوات من التراث ، دكتور عاطف جودة نصر ، د . ط ، ١٩٩٧ ، صفحة ٢١٩ . ويؤكد توطن الحكمة بالشرق الأستاذ حنا فاخوري إذ يقول : " الشرق مهد الحكمة والمثل كان الشرق من أقصاه إلى أدناه ظئر الحكمة والمثل ، وهما فيه قديمان بقدمه ، وقد نثرا على أكتاف جباله وفي بطون أوديته " . وذلك في : الحكم والأمثال لحنا فاخوري ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الرابعة ١٩٨٠ ، ص ٦

٢١) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، د. محمد مصطفى هدارة ، المكتب الإسلامي دمشق وبيروت ، الطبعة الأولى ١٩٨١ ، صفحة ٤٧٩ .

٢٢) لسان العرب لابن منظور، دار الحديث بالقاهرة، ٢٠٠٣، الجزء الثاني ،٥٤٠، ٥٤١ مادة (حكم).

٢٣) أساس البلاغة للزمخشري، الهيئة العامة لقصور الثقافة بمصر، سلسلة الذخائر (٩٥) ، مايو ٢٠٠٣ ، الجزء الأول، ١٩٠ ، ١٩١ .

والحكمة (كلمة جامعة تلخص نظرية أو مجموعة ملاحظات وتجارب، والمفروض فيها أن يسلم بها الجميع مثال ذلك قول المتنبي " ٣٥٤ هـ " :

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إيلام والحكمة لدى عرب الجاهلية، الخبرة المحدودة التي تصورها عبارة قصيرة كقولهم " في بيته يؤتى الحكم " وهو العاقل المجرب الذي يحكم بين الناس في منافراتهم ومفاخراتهم وخصوماتهم. وليس معناها الفلسفة كما كانت تعني في العصور الإسلامية.

وفي آخر معلقة زهير " ٥٣٠ . ٦٢٧ م ؟ " طائفة من الحكم :

ومهما تكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم)

يراجع ذلك في : معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب ، مجدي وهبه ، وكامل المهندس ، مكتبة لبنان ، بيروت ، الطبعة الثانية ، ١٩٨٤ ، ص ١٥٣ .

وقد عرف الدكتور على الجندي الحكمة بقوله : " الحكمة قول رائع يتضمن حكماً صحيحاً مسلماً به " يراجع في ذلك : في تاريخ الأدب الجاهلي ، دكتور على الجندي ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية ١٩٨٥ ، ص ٢٦٠ .

وورد في " قصة الأدب في الحجاز في العصر الجاهلي " :

أن الحكمة " قول بليغ موجز صائب، يصدر عن عقل وتجربة وخبرة بالحياة ويتضمن حكماً مسلماً ، تقبله العقول وتأنس به الأفئدة ، وتنقاد له النفوس والمشاعر " .

يراجع في ذلك : قصة الأدب في الحجاز في العصر الجاهلي ، عبد الله عبد الجبار ، دكتور محمد عبد المنعم خفاجي ، مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة ، ١٩٨٠ ، ص ٢٥٩ .

٢٤) الحكم والأمثال ، حنا الفاخوري ، دار المعارف مصر ، الطبعة الرابعة ١٩٨٠، صفحة ٧ .

٢٥) حلية الأدباء ٩ / ١٥٣ .

٢٦) توالي التأسيس ١٨٦ .

٢٧) ديوان الإمام الشافعي ، تقديم وشرح الدكتور عمر فاروق الطباع ، دار الأرقم بن أبي الأرقم ببيروت ، ١٩٩٥ ، صفحة ١٠ .

٢٨) ديوان الإمام الشافعي ، تحقيق محمد عفيف الزعبي ، ١٩٧١م ، صفحة ٣ .

٢٩) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ٥٦

٣٠) الإمام الشافعي للدقر ٣٥٩ .

٣١) تهذيب الأسماء واللغات للإمام النووي " ت ٦٧٦هـ " ، دار الكتب العلمية ببيروت ، د . ت ، الجزء الأول من القسم الأول ، صفحة ٦٣ .

٣٢) نفسه ٦١ .

٣٣) توالي التأسيس ٩٥ .

٣٤) توالي التأسيس ١١٥ .

٣٥) توالي التأسيس ٥٧ . والسناط من لا لحية له .

(*) يراجع في ذلك الإمام الشافعي للدقر ٢٩٥ وما بعدها. والزكن: ظن بمنزلة اليقين عند الغير.

٣٦) توالي التأسيس ١١٧ ، ١١٨ .

٣٧) توالي التأسيس ١١٧ .

٣٨) يراجع في ذلك : المحمدون من الشعراء للقفطي ٨٠ .

٣٩) مناقب الإمام الشافعي لفخر الدين الرازي " ت ٦٠٦هـ " تحقيق الدكتور أحمد حجازي السقا، مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ، صفحة ٣١٥. والبيتان بالديوان " بهجت ٤٥ " .

٤٠) مناقب الشافعي للرازي " نفسه ٣١٤" .

٤١) توالي التأسيس ١٣٩ .

وقد أتاح العقل والفراسة كلاهما للشافعي قدرة على حسن التصرف، وفك مغاليق الأمور، والاهتداء لأصوب الحلول التي تخفى على الجميع سوى الملهمين الموهوبين أمثال الشافعي، والاهتداء لهذا مما يتصل بالحكمة، فهي اهتداء في حق مبدعها. ويسعى طالبها للاهتداء إليها والوقوع عليها كذلك .. ومن بينات قدرة الشافعي على حسن تصريف الأمور، ما روى أنه قد

(جاء رجل إلى الشافعي فسأله عن مسألة فأجاب، فقال له الرجل: جزاك الله خيرا، فأنشأ الشافعي يقول (من المتقارب):

إذا المشكلاتُ تصدَّيْنَ لي ... كشفتُ حقائقَها بالنظرْ
وإن برقَتْ في مَخِيلِ السَّحَابِ ... عَمْيَاءَ لا تَجْتليها الفِكَر
مقنعة بغيوب الغيوم ... وضعتُ عليها حسامَ البصرْ
لساني كشقشقة الأرحبي ... أو كالحسامِ اليمانيِّ الذكر
ولست بإمعة في الرجال ... أسائل هذا وذا : ما الخبر ؟
ولكنَّني مِدْرَهُ الأَصْغَرَيْنِ ... أقيسُ بما قد مضي ما غبر
وسبَّاقُ قومي إلى المكرُمات ... وجلَّاب خير ، ودفَّاع شر)

يراجع في ذلك : مناقب الشافعي للبيهقي (٣٨٤ – ٤٥٨ هـ) تحقيق السيد أحمد صقر ، دار التراث بالقاهرة ، الطبعة الأولى ١٣٩٠هـ ، ١٩٧٠ م ، ٦١/٢

٤٢) الإمام الشافعي فقيه السنة الأكبر ٣٧٣ .

٤٣) ربما كان من الوارد دراسة المنسوب من شعر الشافعي في ضوء الثابت من نثره (مع التحُرز لتباين النوع الأدبي) بمنهج أسلوبي إحصائي. وذلك للوقوف على ما يرجَّح أن يكون له اعتماداً على خصائص الأسلوب، وما يغلب ألا يكون له. وقد نظم ابن دريد: قصيدة في الشافعي يثبت له فيها القدرة على النثر والشعر كليهما فقال (من الطويل):

له المنظمُ والنثرُ الذي شاع ذكرُهُ ... فلا لحنَ فيه يعتريه ولا عيَّا
وكم حِكَمٍ قد قُيِّدت من كلامه ... كأنَّ بها لقمانَ عاد له المَحْيَا

يراجع في شعر ابن دريد هذا: توالي التأسيس ١٨٦.

٤٤) صفة الصفوة لابن الجوزي "٥١٠هـ –٥٩٧ هـ "تحقيق: الشحات الطحان، دار المنار للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة، الطبعة الأولى ٢٠٠٣، الجزء الأول، صفحة ٤٦٤، ٤٦٥.

٤٥) أما عن طلب العلم، فمن حكم الشافعي النثرية الواردة في ذلك قوله:

- طلب العلم أفضل من صلاة النافلة.
- طلب العلم يحتاج إلى ثلاث: إحداها حسن ذات اليد، والثانية: طول عمر، والثالثة يكون له ذكاء.
- استعينوا على الكلام بالصمت، وعلى الاستنباط بالفكر.

- مَنْ ضُحِكَ منه في مسألة لم ينسها أبداً .(صفة الصفوة ٤٦٤/١ وما بعدها) . ومنه في توالي التأسيس (١٣٦ وما بعدها):
- من لا يحب العلم لا خير فيه ، ولايكن بينك وبينه معرفة ولا صداقة .
- يحتاج طالب العلم إلى ثلاث خصال : طول العمر وسعة ذات اليد والذكاء .
- طلب العلم أفضل من صلاة النافلة .
- العلم علمان : علم الأديان الفقه ، وعلم الأبدان الطب .
- من حضر مجلس العلم بلا محبرة وورق كان كمن حضر الطاحون بغير قمح .
- وعن التقوى وما يستتبعها من زهد ودين يقول الشافعي :
- لا يكمل الرجل في الدنيا إلا بأربع : الديانة والأمانة والصيانة والرزانة .
- صحبة من لا يخاف العار عار يوم القيامة .
- خير الدنيا والآخرة في خمس خصال : غني النفس ، وكف الأذي ، وكسب الحلال، ولباس التقوى ، والثقة بالله في كل حال .
- زينة العلماء التقوى وحليتهم حسن الخلق ، وجمالهم كرم النفس .
- أشد الأعمال ثلاثة: الجود من قلة، والورع في خلوة، وكلمة الحق عند من يُرْجى ويخاف.

(توالي التأسيس ١٣٤ وما بعدها)

ومن حكمه الاجتماعية التي تصون النفس وتحميها ، إذ تسهم في تشكيل وعيها العالي :

- " الانبساط إلى الناس مجلبة لقرناء السوء، والانقباض عنهم مكسبة للعداوة، فكن بين المنقبض والمنبسط.
- " ما أكرمت أحداً فوق مقداره إلا اتضع من قدري عنده بمقدار ما أكرمته .
- ما نظر الناس إلى ما هم دونه إلا بسطوا ألسنتهم فيه .
- ثلاثة إن أهنتهم أكرموك ، وإن أكرمتهم أهانوك : المرأة والعبد والفلاح .
- أظلم الظالمين لنفسه من تواضع لمن لا يكرمه ورغب في مودة من لا ينفعه، وقيل مدح من لا يعرفه.
- من أظهر شكرك بما لم تأت إليه ، فاحذر أن ينكر نعمتك فيما أتيت إليه .
- من علامة الصديق أن يكون لصديق صديقه صديقاً .
- إنك لا تقدر أن ترضى الناس كلهم ، فأصلح ما بينك وبين الله ثم لا تُبَالِ بالناس .
- لا تشاور من ليس في بيته دقيق" . توالي التأسيس ١٣٤، وما بعدها .

٤٦) مناقب البيهقي ٢ / ٨٢. مناقب الشافعي لفخر الدين الرازي ٣١٠. والبيتان بديوان الشافعي تحقيق الدكتور مجاهد مصطفى بهجت، دار القلم بدمشق، الطبعة الأولى ١٩٩٠، صفحة ٨٤، وسيشار إلى هذا الديوان فيما بعد بـ " الديوان بهجت " وهو التحقيق الأكثر تدقيقاً والمقدم في هذه الدراسة، يليه تحقيق الدكتور عمر فاروق الطباع.

٤٧) مناقب الشافعي للرازي ٣١٢ ، والديوان بهجت ٧٦ .

٤٨) ديوان الشافعي شرح وضبط الدكتور عمر فاروق الطباع ٩١. والبيتان ليسا في الديوان " بهجت ".

٤٩) مناقب الشافعي ٣١٢.والبيتان ليسا في الديوان " بهجت " .

٥٠) حلية الأولياء ١٥٤/٩ . والبيتان بالديوان " بهجت ٧٨ " مع اختلاف يسير بالضرب؛ إذ فيه " حقاف " بدلاً من " خراف " .

٥١) ديوان الشافعي (الطباع)٨٦.

٥٢) نفسه ٨٩ . والبيتان بالديوان " بهجت " ٨٤ .

٥٣) نفسه (الطباع) ٩٦ .

٥٤) ديوان الإمام الشافعي (محمد عفيف الزعبي) ٩١ .

٥٥) ديوان الشافعي (بهجت) ٨٦ .

٥٦) ديوان الشافعي (بهجت) ٦٩ .

٥٧) ديوان لقيط بن يعمر، حققه وقدم له الدكتور عبد المعيد خان، دار الأمانة ومؤسسة الرسالة ببيروت، طبعة١٩٧١، صفحة ٣٩. ويروي أن لقيط بن يعمر كان يقيم بالحيرة فبلغه خبر غزو كسري لإياد (فكتب إلى إياد وهم بالجزيرة:

سلامٌ في الصَّحيفةِ من لقيطٍ ... على من بالجزيرة من إياد

بأن الليث كسرى قد أتاكم ... فلا يشغلكُمُ سَوْقُ النِقادِ

أتاكم منهُمُ ستون ألفاً ... يزجون الكتائب كالجراد

على حَنَقٍ أتيناكم فهذا ... أوانُ هلاكِكُم كهلاك عاد

(من الوافر) (الديوان ٣٥، ٣٦) وبالأبيات بيان لأطراف الرسالة / العملية البلاغية، فبالصدر الأول حديث عن المرُسِل: لقيط، وبعجزه المرسل إليه: إياد وموطنها الجزيرة، وبالصدر الثاني مضمون الرسالة ، وبعجزه نصيحته التي تؤكد عليهم الاهتمام للأمر وعدم الغفلة ، وبالبيت

الثالث ببيان قدرة الجيش القتالية وعدته المادية ، وبالرابع حديث عن شعار الجيش الكسروي وشيء من مفردات الحرب المعنوية ، وأناشيد الحماسة القتالية .

٥٨) ديوان دريد بن الصمة : تحقيق الدكتور عمر عبد الرسول ، دار المعارف بمصر ، سلسلة ذخائر العرب (٥٩) سنة ١٩٨٠ ، صفحة ٥٩ وما بعدها .

عارض: قوم من بني جشم، كاد دريد نهاهم عن النزول حيث نزلوا فعصوه ورهط بني السوداء فيهم. وبنو السوداء من بني جشم بن هوازن على رأى، وقد ورد في الأغاني (١٠/١٠) أن (عارض) اسم من أسماء أخي دريد (عبد الله) .

٥٩) معجم الأدب اء٦/٢٤٠٨. والبيتان الأول والثالث بحلية الأولياء ١٥٢/٩ مع اختلاف في الصدر الأول.

٦٠) حياتي : أحمد أمين ، مكتبة الأسرة " تصدرها الهيئة المصرية العامة للكتاب في مصر " ، سلسلة روائع السيرة الذاتية ٢٠٠٣ ، صفحة ٧ ، ٨ .

٦١) ديوان الشافعي : جمع وتحقيق ودراسة الدكتور مجاهد مصطفى بهجت ، دار القلم بدمشق ، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ (١٩٩٩ م) صفحة ١٠٢ .

٦٢) معجم الأدباء ٦/٢٤١٤. وفي توالي التأسيس ١٤٣" باختلاف يسير " . والبيتان بديوان الشافعي (بهجت ٦٥) على هذا النحو (من الطويل) :

إني أرى نفسي تتوق إلى مصر ومن دونها خوض المهامه والقفر
فوالله ما أدري أللخفض والغنى أقاد إليها أم أقاد إلى قبري

٦٣) توالي التأسيس ١٣٩، ١٤٠. والبيتان بحلية الأولياء ١٥٢/٩ " باختلاف يسير، فبالحلية (عونه، مجاورتي، تحملته) بدلاً من (غربة ، يجاورني ، فجانبته) على الترتيب . ويرى الدكتور إحسان عباس أن البيتين ليسا للشافعي، وإنما تَمَثَّل بهما (معجم الأدباء ٦/ ٢٤٠٨ هامش [٢]).

٦٤) توالي التأسيس ١٤١. ومناقب الشافعي للبيهقي ٧٩/٢. والأبيات بالديوان " بهجت ١١٥ " في الشعر المنسوب وفيه أن الأبيات منسوبة لأبي العتاهية أيضاً.

٦٥) مناقب الشافعي للبيهقي ٢-٧٩، والديوان " بهجت ١١٥ ".

٦٦) معجم الأدباء ٦/٣٤٠٨. والديوان " بهجت ٧٤ " بزيادة بيت بين الثاني والثالث هو:

إني أحب بني النبي المصطفي وأعده من واجبات فرائضي

٦٧) توالي التأسيس ١٤١. والديوان " بهجت ٩٠ " والنُصْب والنَصب: مناصبة آل البيت العداء.

٦٨) مناقب الشافعي للرازي ٣١٥ .

٦٩) حلية الأولياء ١٤٩/٩ .

٧٠) نفسه ١٥٠/٩ . ويروي اليافعي في" مرآة الجنان " ٢٥٢ أنه تَمَثَّلَ بهما .

٧١) توالي التأسيس ١٤٣ . والأبيات بالديوان " بهجت ١٠٨ " .

٧٢) معجم الأدباء ٢٤١٣/٦ . والأبيات بالديوان " بهجت ٤٨ " .

٧٣) نفسه ٢٤١٤/٦ . والأبيات في حلية الأولياء ١٣١/٩ ، باختلاف يسير وبزيادة بيت في النهاية هو :

فإن تكن الأيام أزرت ببزتي فكم من حسام في غلاف تكسرا

والأربعة أبيات بالديوان " بهجت ٦١ ". ويرى الأصفهاني أن هذه الأبيات الشافعية قيلت حينما دخل الشافعي " سُرَّ من رأي " وليس مصر، وهكذا يرى القفطي في (المحمدون من الشعراء) ٨١.

٧٤) مناقب الشافعي للرازي ٣١٦ . والأبيات بالديوان " بهجت ٦٤ " .

٧٥) مناقب الشافعي للرازي ٣٠٢ ، ٣٠٣ ، والأبيات في الشعر المنسوب للشافعي ، والأبيات بالديوان " بهجت ١١٤ " . .

٧٦) الديوان " بهجت ٨٣ " والأبيات بديوان الإمام الشافعي (دكتور الطباع) ٨٩. باختلاف يسير في الألفاظ وترتيب الأبيات.

٧٧) مناقب الإمام الشافعي للرازي ٣٠١. والأبيات بالديوان " بهجت ١١٣ ". في الشعر الراجح نسبته للشافعي باختلاف يسير.

٧٨) ديوان الإمام الشافعي (د. الطباع) ٨٩ .

٧٩) معجم الأدباء ٢٤١٣/٦. والأبيات بالديوان " بهجت ٥٨ " باختلاف يسير .

٨٠) يراجع في ذلك قوله: (لما عفوت ولم أحقد على أحد ....) بمناقب الشافعي للرازي ٣١٥.

٨١) النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين: دكتور محمد رجب البيومي، دار القلم دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٥ هـ (١٩٩٥) الجزء الأول ٣٨٠. يقول ابن رشيق في ذلك: (إن كل منظوم أحسن من كل منثور من جنسه في معترف العادة).

يراجع ذلك في: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده لابن رشيق القيرواني، تحقيق: الأستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد، دار الطلائع بمصر، الطبعة الأولى ٢٠٠٦ ، ١٧/١، ١٨.

٨٢) حلية الأولياء ١٥١/٩ .

٨٣) توالي التأسيس ١٤٤(هامش (٢)) . نقلاً عن : خزانة الأدب ٢ / ٤٦٢ .

٨٤) مناقب الشافعي للرازي ٣٠٦، ٣٠٧ .

٨٥) الأبيات بالديوان " بهجت ١٠٤ " .

٨٦) توالي التأسيس ١٤٢ .

٨٧) الأبيات بالديوان " بهجت ٧٨ " .

٨٨) نفسه ٨٤ .

٨٩) الأبيات بالديوان " بهجت ١٠٢ " .

٩٠) نفسه ٥٩ . والأبيات بمناقب الشافعي للبيهقي ٦٢/٢ .

٩١) الشعر والشعراء لابن قتيبة، تحقيق وشرح الأستاذ: أحمد محمد شاكر، دار الحديث بالقاهرة، طبعة ٢٠٠٦، الجزء الأول، صفحة ٧١.

٩٢) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري، دكتور محمد مصطفى هدارة، المكتب الإسلامي بيروت ودمشق، الطبعة الأولى ١٩٨١، صفحة ٤٨٠.

٩٣) المحمدون من الشعراء للقفطي ١٣٨ .

٩٤) مناقب الشافعي للبيهقي ٤٨/٢، ٩٠ .

٩٥) مرآة الجنان للشافعي ٢٦/٢ .

٩٦) تهذيب الأسماء واللغات ٦١/١ .

٩٧) معجم الأدباء ٢٤٠٣/٦ .

٩٨) ديوان الشافعي (بهجت) ١٠٨ .

٩٩) نفسه ٤٩ .

١٠٠) دراسات في الشعر العربي " تحليل لظواهر أدبية وشعراء " محمد مصطفى هدارة، دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية ١٩٨٢، الجزء الثاني، صفحة ٦٢، ٦٣.

ويقول في موضع آخر (٥٧/٢) :

(أما شعر الشافعي الذي بقى بين أيدينا فهو يتميز بالجزالة وصفاء العبارة وقوة النسيج والإيجاز المحكم الذي يجعل بعض أبياته تجري مجرى الأمثال، والمثل لا يشيع على ألسنة الناس إلا بسبب جمال العبارة ورصانة المحتوى، ودلالته على تجربة إنسانية) .

١٠١) الديوان (بهجت ٢٦). ويقول الدكتور: (كان الشافعي يقول على غرار قول أبي العتاهية لو شئت لجعلت كل كلامي شعراً. كان ذا شاعرية وذا بديهة في الشعر) ديوان الإمام الشافعي، شرحه وضبط نصوصه: دكتور عمر فاروق الطباع، دار الأرقم ببيروت، ١٩٩٥، صفحة ٩.

١٠٢) يراجع في ذلك تقديم الدكتور مجاهد للديوان صفحة ٤١ وما بعدها.

١٠٣) ديوان الشافعي (بهجت) ٥.

١٠٤) نفسه ٩٩. الأبيات الواردة في التحليلية الفنية هي هي أبيات الحكمة والإبلاغية ولذلك تتكرر الأبيات، وربما جدت أبيات هنا لم تسبق بالدراسة، لكنها لا تخرج عن الحكمة أو البلاغية –وأول هذه الأبيات يتصل بالبلاغية.

١٠٥) نفسه ١٠٩.

١٠٦) ديوان الإمام الشافعي للدكتور الطباع ٦١.

١٠٧) رواه البخاري في الأدب المفرد (٣٠٠) والترمذي بسننه في الزهد باب التوكل على الله (٢٣٤٦) وابن ماجة في سننه بالزهد باب القناعة (٤١٤١).

١٠٨) الديوان "بهجت ١٠٣ ". ديوان الإمام الشافعي للدكتور الطباع ٦١.

١٠٩) ديوان النابغة الذبياني، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف بمصر، الطبعة الثانية، ١٥١.

١١٠) يراجع في المثل (اترك الشر يتركك): مجمع الأمثال للميداني رقم (٦٨٨) تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة ١٩٥٥، الجزء الأول، صفحة ١٣٨.

١١١) ديوان الشافعي (بهجت) ٧٦.

١١٢) يراجع في ذلك: توالي التأسيس ٩٩.

١١٣) توالي التأسيس ٣١٥.

١١٤) ديوان الشنفري، تحقيق دكتور إميل بديع يعقوب، دار الكتاب العربي بيروت، الطبعة الثانية ١٩٩٦، صفحة ٥٨. والأبيات وثيقة الصلة بقول الشافعي: (ديوان الشافعي " الطباع ") ٩٠.

ارحلِ بنفسك من أرضٍ تضام بها ... ولا تكن من فراق الأهل في حرقِ
فالعنبر الخام روثٌ في مواطنهِ ... وفي التغرُّبِ محمولٌ على العنقِ
والكحل نوع من الأحجار تنظره ... في أرضه وهو مَرْميٌّ على الطرُقِ
لما تَغَرَّب حاز الفضل أجمعه ... فصار يُحْمَلُ بين الجفنِ والحدق

١١٥) ديوان الإمام الشافعي (الطباع) ٩٨ .

١١٦) نهج البلاغة للإمام على بن أبي طالب، ضبطه دكتور صبحي الصالح، دار الكتاب المصري بالقاهرة، الطبعة الرابعة ٢٠٠٤، صفحة ٤٧٠ .

١١٧) ديوان الشافعي (جمع وتحقيق محمد عفيف الزعبي) صفحة ٢١ .

١١٨) ديوان الشافعي (بهجت) ٨٤ .

١١٩) ديوان الشافعي (الزعبي) ٢٢ .

١٢٠) ديوان الشافعي (بهجت) ٧٤ .

١٢١) نفسه ٥٤ .

١٢٢) نفسه ٧٨ .

١٢٣) نفسه ٦٢ .

١٢٤) نفسه ٦٣ .

١٢٥) نفسه ٤٥ .

١٢٦) ديوان الشافعي " بهجت ٥٢ " . ويراجع أيضاً ديوان الشافعي (الطباع)٨١.

١٢٧) ديوان الشافعي بهجت ٥٧ .

١٢٨) نفسه ٥٨ .

١٢٩) من تقديم الدكتور عمر فاروق الطباع لديوان الشافعي ١٠ .

١٣٠) اجتمع للشافعي قدرة على الشعر والنثر، ونثره غالباً أروع من شعره، وهناك نص يكشف عن ذلك: (مات لعبد الرحمن بن مهدي ولدٌ فكتب إليه الشافعي: يا أخي عَزِّ نفسك بما تعزي به غيرك، واستقبح من فعلك ما تستقبحه من فعل غيرك، واعلم أن أمضَّ المصائب فقد سرور، وحرمان أجر فكيف إذا اجتمعا مع اكتساب

وزر؟ فتناول حظك يا أخي إذا قرب منك، قبل أن تطلبه وقد نأي عنك. ألهمك الله عند المصائب صبراً، وأجزل لنا ولك بالصبر أجراً . وكتب إليه:

إنـــي معزيـــك لا أنـــي علـــى ثقـــة ... مـــن الخلـــود ولكـــن ســـنة الـــدين
فمـــا المعـــزَّي ببـــاق بعـــد ميِّتـــه ... ولا المعـــزِّي وإن عاشـــا إلـــى حـــين)

مناقب الشافعي للبيهقي ٢/٩٠، ٩١. والفارق بين الأسلوبين النثري والشعري واضح لصالح الأول.

١٣١) الديوان بهجت ٦٢.

١٣٢) من مقدمة الدكتور عمر الطباع لديوان الإمام الشافعي صفحة ١٠ .

١٣٣) مناقب الإمام الشافعي للرازي ٣٠٦ . والأبيات ليست بالديوان " بهجت " .

١٣٤) ديوان الشافعي بهجت ١٠٠. ويراجع أيضاً الديوان للزعبي ٨٥ (الناس خدم العلم...).

١٣٥) ديوان الإمام الشافعي الزعبي ٨٥ .

١٣٦) ديوان الشافعي بهجت ٨٠

١٣٧) ديوان الإمام الشافعي (الزعبي) ٨٧ .

١٣٨) ديوان الإمام الشافعي (الطباع) ٨٨ .

١٣٩) ديوان الشافعي " بهجت " ٨٣ (الجد الأول من الاجتهاد والثاني من الحظ، فإن اتفق ضبط الدالين، تحول هذا النموذج إلى التكرار).

١٤٠) نفسه ٧٦ .

١٤١) نفسه ٧٧ .

١٤٢) نفسه ١٠٤ .

١٤٣) نفسه ١٠٤ ، ١٠٥ .

١٤٤) نفسه ٧٧ . والكورة : المدينة والصقع ، والجمع : كور .

١٤٥) نفسه ٧٨ .

١٤٦) نفسه ٩٩ .

١٤٧) نفسه ١٠١ .

المصادر والمراجع

(١) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، دكتور محمد مصطفى هدارة ، المكتب الإسلامي بدمشق ، الطبعة الأولى ١٩٨١ .

(٢) أساس البلاغة للزمخشري ، الهيئة العامة لقصور الثقافة بمصر ، سلسلة الذخائر ٩٥ ، مايو ٢٠٠٣ .

(٣) أصوات من التراث ، دكتور عاطف جودة نصر ، طبعة ١٩٩٧ .

(٤) الإمام الشافعي فقيه السنة الأكبر " : عبد الغني الدقر ، دار القلم بدمشق ، الطبعة السادسة.

(٥) تذكرة الحفاظ للذهبي " ت ٧٤٨هـ " ،١٣٤٨ م " دار الكتب العلمية ببيروت ، الطبعة السادسة ، الجزء الأول .

(٦) التمرد على الأدب " دراسة في تجربة سيد قطب " دكتور على شلش ، دار الشروق بيروت والقاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٩٤م .

(٧) تهذيب الأسماء واللغات للنووي " ت ٦٧٦هـ " دار الكتب العلمية ببيروت .

(٨) توالي التأسيس لمعالي محمد بن إدريس لابن حجر العسقلاني " ٧٧٣ . ٨٥٢ هـ " تحقيق أبي الفداء عبد الله القاضي ، دار الكتب العلمية ببيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٦ هـ .

(٩) الحكم والأمثال ، حنا الفاخوري ، دار المعارف بمصر الطبعة الرابعة .

(١٠) حلية الأولياء وطبقات الأصفياء للحافظ أبي نعيم الأصفهاني " ت٤٣٠ هـ " مكتبة الخانجي بالقاهرة ، دار الفكر ببيروت ١٩٩٦م ، الجزء التاسع .

(١١) حياتي ، أحمد أمين ، مكتبة الأسرة " مشروع القراءة للجميع بمصر .

(١٢) دراسات في الشعر العربي " تحليل لظواهر أدبية وشعراء " ، دكتور محمد مصطفى هدارة ، دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية ، ١٩٨٢ .

(١٣) ديوان الإمام الشافعي : تحقيق : محمد عفيف الزعبي ،١٣٩١ هـ .

(١٤) ديوان الإمام الشافعي : تقديم وشرح الدكتور عمر فاروق الطباع ، دار الأرقم بن أبي الأرقم ببيروت ، د.ت .

(١٥) ديوان الشافعي : جمع وتحقيق ودراسة دكتور مجاهد مصطفى بهجت ، دار القلم بدمشق ، الطبعة الأولى١٩٩٩ .

(١٦) ديوان الشنفري : تحقيق دكتور إيميل بديع يعقوب ، دار الكتاب العربي بيروت ، الطبعة الثانية ١٤١٧هـ (١٩٩٦م) .

(١٧) ديوان النابغة الذبياني بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار المعارف بمصر ، الطبعة الثانية .

(١٨) ديوان دريد بن الصمة : تحقيق دكتور عمر عبد الرسول ، دار المعارف بمصر ، سلسلة ذخائر العرب (٥٩) سنة ١٩٨٠ .

(١٩) صفة الصفوة لابن الجوزي "٥١٠هـ . ٥٩٧هـ " حققه : محمود فاخوري ، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع ببيروت ، الطبعة الثالثة ١٤٠٥ هـ .

(٢٠) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، دار الطلائع بالقاهرة ، الطبعة الأولى ٢٠٠٦ .

(٢١) لسان العرب لابن منظور ، دار الحديث بالقاهرة ، طبعة ٢٠٠٣ .

(٢٢) مجمع الأمثال للميداني ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، مطبعة السنة المحمدية بالقاهرة ١٩٥٥ .

(٢٣) المحمدون من الشعراء للقفطي .

(٢٤) معجم الأدباء : إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب " لياقوت الحموي ، تحقيق : الدكتور إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي ببيروت ، الطبعة الأولى ١٩٩٣ .

(٢٥) معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب ، مجدي وهبه وكال المهندس ، مكتبة لبنان بيروت ، الطبعة الثانية ١٩٨٤ .

(٢٦) مناقب الشافعي لفخر الدين الرازي (ت ٦٠٦ هـ) تحقيق الدكتور أحمد حجازي السقا ، مكتبة الكليات الأزهرية بالقاهرة ، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ .

(٢٧) مناقب الشافعي للبيهقي (٣٨٤ – ٤٥٨هـ) تحقيق : السيد أحمد صقر ، دار التراث بالقاهرة ، الطبعة الأولى ١٩٧٠ .

(٢٨) نهج البلاغة للإمام على بن أبي طالب ، ضبط الدكتور صبحي الصالح ، دار الكتاب المصري بالقاهرة ، الطبعة الرابعة ٢٠٠٤ .

(٢٩) النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين ، دكتور محمد رجب البيومي ، درا القلم دمشق ، الطبعة الأولى ١٩٩٥ .